رجال القومة والإصلاح

عبد السلام ياسين

رجال القومية والإصلاح

الطبعة الرابعة : 2018/1439
ISBN: 9789953506258



لبنان – بيروت – البسطا التحتا – الباشورة

هاتف وفاكس المكتب: ٦٥٩٩٩٨ / ٠٠٩٦١

هاتف وفاكس المطبعة: ٨١٣٢٠٣ / ٠٠٩٦١

البريد الإلكتروني: darlubnan@hotmail.com

الموقع الإلكتروني: darlubnan.com

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Darlubnan for Printing and Publishing

First National Bank-Jnah

Account No: 007-111940012

Swift code: FINKLBBE

Iban: LB 89 0108 0000 0000 0071 1194 0012

بسم الله الرحمن الرحيم

رجال القومة والإصلاح

عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه

بين يدي الكتاب

طال الأمد على الأمة وحالَ وجْه الأمة وتحملت الكلمات من ثِقل تاريخ الفِتن في ديار المسلمين ما أخمد وَهَج الكلمات.

معنى الرجولة ومن هم الرجال ؟

ما القومة هذه الكلمة الأصيلة الفاضلة ؟

ما الإصلاح ومن يُصلح ؟

وما يُصلح ؟

تلك بعض الأسئلة التي يطرحها هذا الكتاب.

وتلك معان نرجو من العلي القدير سبحانه أن يجدد حياتَها في قلوب رجال مؤمنين ونساء مؤمنات يرجون لقاء الله ويوقنون باليوم الآخر، يعملون في دنياهم ما يُصلح حال أمتهم في الدنيا وحالتهم في دار الخلود.

جعلنا الله وإياكم معشر القراء الصالحين ممن يحمل إلى آخرته زاد التقوى إيمانا بالله وعملا صالحا بنية صالحة وهمة عالية فاعلة.

سلا، ظهر الثلاثاء 17 ذي الحجة 1421.

عبد السلام ياسين

الفصل الأول

القومة ومشروعيتها

- القومة والثورة
- «وأولي الأمر منكم»
- الكفر البَواحُ
- الخارج من أهل البغي
- بل القاعد شريك في الجريمة
- المنكر الأنكر !

القومة والثورة

قال الله تعالى: **﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾**[1]. وفي القرآن: **﴿وَأَن تَقُومُواْ لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾**[2]، **﴿كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ﴾**[3]، **﴿كُونُواْ قَوَّامِيَن بِالْقِسْطِ شُهَدَاء للهِ﴾**[4]. المادة في القرآن كثيرة تقترن بالدعوة، والقسط وهو العدل، وتدل على القوة والإتقان، مثل **﴿أَقِيمُواْ الصَّلاةَ﴾**، وعلى الاستقامة، وهي بهذا اللفظ ومشتقاته كثير.

كان المسلمون في العهد الأول يميزون بين كلمة «القائم» وبين كلمة «الثائر». فيطلقون الأول على من قام بالحق ضد حكام الجور، ويطلقون كلمة «ثائر» عل كل مسلح يحارب السلطان. وفي الحديث النبوي كثيراً ما تقترن مادة «ثار» بالسلاح والاضطراب والحركة العنيفة. والثورة تغيير بالعنف للبيئة الاجتماعية، والقومة تغيير دوافع الإنسان وشخصيته وأفكاره، تغيير نفسه وعقله وسلوكه، تغيير يسبق ويصاحب التغيير السياسي الاجتماعي.

نفضل أن نتميز في التعبير، ونعيد لكلمة «قومة» مدلولها الإسلامي. ذلك أن «ثورة» تحتل اليوم على لسان كل متكلم، وفي خيال كل تواق لصرع الظالمين، مكانة محترمة. وتحمل في طيها معاني وأساليب وأهدافا ليست منا ولم تنبت في أرضنا. فنريد أن نُعَبِّر بقومة لأنها تعيد لأذهاننا

---

(1) الجن، 19.

(2) النساء، 127.

(3) المائدة، 8.

(4) النساء، 135.

تلك القداسة التي كان يتمتع بها «القائمون» من آل البيت، الذين حاربوا الظلم والاستبداد، إمامهم في ذلك سِبْطُ الرسول الحسين عليه السلام.

ولسنا نتنقل بين الكلمات لمجرد التميز في اللفظ. فللكلمة والتعبير وأسلوب التخاطب انعكاس مباشر على العمل. ولئن لم نستغن عن العبارات التي نشأت في تاريخ غير تاريخنا، وأرض غير أرضنا، وصدرت عن ذهنية مخالفة لفكرنا، ووظفت في وظائف لا علاقة لها بأهدافنا، نوشك أن يجْرفنا التعبير المنحرف عن قصدنا، إلى انحراف في جهادنا.

«وأولي الأمر منكم»

قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾[1] فشرط الطاعة بكون أولي الأمر منا. فإذا انحرفوا عن الدين وعن الصراط المستقيم، فما موقف الأمة تجاههم؟ وكيف يكون عِصيانهم في طاعة الله؟ ألا يكون تعريضُ الأمة بعصيانهم مُساهَمةً في تخريب دولة الإسلام وشوكته التي يتوقف عليها بَقاؤُه وسَطَ عالم مناهض للإسلام من خارج أرضه، وبين أقوامٍ وأجناسٍ وعساكِرَ تتنازع السلطة في الداخل؟ هكذا طرحت المسألةً على علمائنا في تلك العصور، وهكذا تطرح علينا اليوم.

لم يكن في إدراك علمائنا أيُّ التباس في كون الظَّلَمَةِ ليسوا منا. ارجع إلى كلام ابن تيمية رحمه الله، تجده يتحدث عن قضاتهم وعلمائهم وعبادهم. ينسب فساد أصناف الناس للحكم المستبد. وقد

(1) النساء، 59.

أدّاهم اجتهادهم إلى أنَّ الحاكم الظالـمَ والفاسقَ ضرورةٌ يجب الصبر عليها. وما دار من جَدَلٍ كلامي حول معنى الإيمان هل هو قول وعمل، وحول مُرتكِبِ الكبائر هل يكفر أو لا، إنما يحوم حول الحكام الفاسقين لمعرفة الحد الفاصل بين الفسق الذي لا يُخرج صاحبه عن دائرة الإيمان، وبين الفجور المفضي إلى الكفر. كان الجدل حول تلك المسائل تعبيرا عن الرفض، ونقدا غير مباشر للملوكية.

في فصول هذا الكتاب نستعرض إن شاء الله آراء الفقهاء ومواقف رجال قاموا ضد الحكم. لا نرمي من وراء الاستعراض لآراء من سبقونا بإيمان ومواقفهم أن نعثُرَ على نص أو سابقةٍ تبرر ما ندعو إليه من منابذة حكام الجبر في عصرنا. فنحن نقلد الله ورسوله ولا نتقيد بأقوال الرجال وآرائهم. سيما وحكامهم الفاسقون كانوا يزعمون احترام الشرع، بينما لا تجد من بين طواغيتنا إلا كل عُتُلٍّ زَنيم، إذا تتلى عليه آيات ربه قال أساطير الأولين. سيما وحكام تلك العهود ما صادقوا ووالَوْا المشركين، بل حاربوهم، بينما حكام الجبر بين ظَهْرانَيْنا أصبحوا مطية للاستعمار وخدَمَةً لمصالحه.

الكفر البواح

أخرج الإمام أحمد والشيخان عن عُبادة بن الصامت أنه حدَّث في مرضه قال: «دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه. فقال فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في مَنشَطِنَا ومَكْرَهِنَا، وعُسرنا ويُسرنا، وأَثَرَةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله (عند أحمد زيادة: نقول بالحق حيثما كنا لا نخاف في الله لومة لائم): «**إلا أن تروا كفراً بَواحا عندكم من الله فيه برهان**».

قال الحافظ ابن حَجر: «قال الخطابي: معنى قوله بَواحا يريد ظاهرا باديا، من قولهم باح بالشيء يبوح به بوحا وبواحا إذا أذاعه وأظهره». وذكر رواية الطبراني وفيها «كفرا صُراحا». ورواية ابن حبان وفيها: «إلا أن يكون معصية لله بَواحا». ورواية أحمد من طريق جُنادة: «ما لم يأمروك بإثْم بواحٍ». رواية إسماعيل ابن عبيد عند أحمد والطبراني والحاكم عن إسماعيل بن عبيد عن أبيه عن عُبادة: «سَيَلِي أمورَكم من بعدي رجالٌ يُعَرِّفونكم ما تُنكرون ويُنكرون ما تَعْرِفون. فلا طاعةَ لِمَنْ عصى الله». ورواية أبي بكر وابن شيبة من طريق أزهر بن عبد الله عن عبادة: «سيكون عليكم أمراء يأمرونكم بما لا تعرفون، ويفعلون ما تُنكرون، فليس لأولئك عليكم طاعة».

ثم قال الحافظ: «قوله عندكم من الله فيه بُرهان، أي نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل. ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلُهم يحتمل التأويل. قال النووي: المراد بالكفر هنا المعصية. ومعنى الحديث: لا تُنازعوا وُلاة الأمور في ولايتهم، ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم مُنكرا محققا تعلمونه من قواعد الإسلام. فإذا رأيتم ذلك فأنكروا عليهم، وقولوا بالحق أينما كنتم. انتهى. وقال غيره: المراد بالإثم هنا المعصية والكفر، فلا يُعْتَرَض على السلطان إلا إذا وقع في الكفر الظاهر. والذي يظهر حَمْلُ رواية الكفر على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية. فلا ينازعه بما يقدح في الولاية إلا إذا ارتكب الكفر. وحَمْلُ رواية المعصية على ما إذا كانت المنازعة فيما عدا الولاية. فإذا لم يقدح في الولاية نازعه في المعصية بأن ينكر عليه برفق، ويتوصل إلى تثبيت الحق له بغير عنف. ومحل ذلك إذا كان قادرا. والله أعلم»[1].

(1) فتح الباري، ج13، ص8.

تلخص لنا أن:

1 ـ حديث الشيخين يجعل الطاعة واجبة ما لم يكن كفر بواح، أي ظاهر باد.

2 ـ زيادة الإمام أحمد تجعل معارضة الحاكم واجبة إن خالف الحق. ولم يُذْكَرْ هنا كفرٌ ولا معصيةٌ.

3 ـ رواية ابن حبان تسقط الطاعة في حالة المعصية البواح يرتكبها الحاكم.

4 ـ رواية أحمد عن جنادة تسقطها إن أمر الحاكم الناس بإثم بواح.

5 ـ رواية أبي بكر وابن شيبة تنفي الطاعة للحاكم الذي يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف من الدين.

6 ـ النووي يفسر الكفر البواح في حديث الشيخين بأنه المعصية. وهكذا تلتقي معاني هذه الروايات.

7 ـ رأي ابن حجر أن الكفر البواح يُجيزُ منازعة الحاكم لخلعه. فإن كانت معصيةً دون الكفر وجب الرد عليه برفق. كل ذلك لمن قدر.

ونقل ابن حجر عن الداودي أنه قال: «الذي عليه العلماء في أمراء الجَوْر أنه إن قدر على خلعه بغير فتنة ولا ظلم وجب. وإلا فالواجب الصبر»[2]. هذا الخوف من الفتنة واستبدال ظالم بأظلم منه هو الذي ألجمَ العلماء، وشل فاعليتهم في تاريخنا. وكيف يمكن خلع حكم عاض قائم على السيف دون مقارعة في الميدان؟ ورجَّح علماؤُنا الصبرَ على الداء العُضال الذي نَخَرَ في جنب الأمة، يُفضلونه على الانتفاضة التي لا يمكن التنبؤ بنتائجها. وكانت القومات المسلحة

(2) فتح الباري، ج13، ص8.

استثناء من هذه القاعدة. بينما تكاثرت ثورات الفتانين من الضُّلاَّل وخاطبي الزَّعامات.

الخارج من أهل البغي

نجد التمسك بالنظام القائم أجلى ما يكون عند رجل عُرِفَ بمواقفه الصارمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يقول شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله: «جمهورُ العلماء يقولون: يمينُ المكْرَهِ بغير حق لا ينعقد (...)، وهذا مذهب مالك والشافعي وأحمد. ثم إذا أَكْرَهَ وليُّ الأمر الناسَ على ما يجب عليهم من طاعته (لاحظ أنها طاعة مُغتصبة) ومناصحته، وحلَّفهم على ذلك، لم يجز لأحد أن يأذنَ لهم في ترك ما أمر الله به ورسوله من ذلك، ويُرَخِّصَ لهم في الحِنْثِ في هذه الأيْمان»[1]. فإذن لا يقول الشيخ بمذهب الأئمة والجمهور إن تعلق الأمر بالحاكم. ثم يقول رحمه الله: «وأما أهل العلم والدين والفضل فلا يُرَخِّصُونَ لأحد فيما نهى الله عنه من معصية وُلاة الأمور، وغِشِّهم، والخروج عليهم، بوجهٍ من الوجوه»[2]. لا فرق هنا بين ولاة الأمر الشرعيين وهم الذين اختارتهم الأمة وبين غيرهم. ولا رخصة للخروج «بوجه من الوجوه»، رغم التفصيل الوارد في الأحاديث كما ذكرنا.

العُلماء الخائفون على بيضة الإسلام أن تَنْثَلِمَ، وعلى شوكته أن تُكَسَّر، فسَّروا الكفر البواح بغير ما فسرتْهُ به الأحاديث التي أتت بلفظ «معصية» أو «إثم». فهم يتفقون على سقوط إمامة المرتَدِّ، لكنهم

(1) الفتاوي، ج35، ص11.
(2) نفس المصدر، ص12.

يقبلون جَوْرَ الفاسق مهما بلغ. يقول القاضي أبو يعلى في كتابه «المعتمد من أصول الدين»: «وإنْ لَم يكفر لكن فسَقَ في أعماله كأَخْذِ الأموال، وضَرْبِ الأبشار، وتناوُلِ النفوس المحرَّمة (أي قتل الأبرياء)، وتضييع الحقوق، وتعطيل الحدود، وشُرْبِ الخمور، ونحوِ ذلك، فهل يوجب خَلْعَهُ أم لا ؟ ذكر شيخنا أبو عبد الله في كتابه عن أصحابنا أنه لا يُخْلَعُ بذلك ولا يجب الخروج عليه. بل يجب وعظُه، وتخويفُه، وتركُ طاعته في شيء مما يدعو إليه من معاصي الله تعالى، خلافا للمعتزلة والأشعرية في قولهم يُخْلَع بذلك»[3].

موقف العلماء -خاصة «أصحاب» القاضي أبي يعلى الحنبلي المذهبيين- هذا المخالف لصريح السنة هو الذي هاض جناح الأمة. فالحاكم واجبُ الطاعة، موفورُ الكرامة، إلا ما يُسْدَى إليه من وَعظ، وإلا تركُ طاعته في «بعض» ما يدعو إليه من معصية الله. لا تجب منابذَتُه ولو قتل الأبرياء، وابتز الأموال، وهتك الحُرَم !

بل القاعد شريك في الجريمة

في هذه القضية العظمى نجد موقفا فذّاً لمجتهد فذ هو ابن حزم رحمه الله. قال في وجوب القتال مع الأعدل: «فإن قام عليه أعدلُ منه وجب أن يقاتل مع القائم لأنه تغيير منكر»[4]. ونقل الدكتور محمد عبد الله العربي صفحة عن ابن حزم ولم يذكر مصدره: قال ابن حزم: «ذهبت طائفة من أهل السنة، وجميع المعتزلة والخوارج والزيدية، إلى أن سل السيوف في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب إذا لم يكن دفع

(3) نصوص الفكر السياسي الإسلامي، ص216.
(4) المحلى، ج9، ص362.

المنكر إلا بذلك. ثم قال هؤلاء: فإذا كان أهل الحق في عِصابةٍ يُمكنهم الدفع ولا ييأسون من الظفَر، ففَرْضٌ عليهم ذلك. وإن كانوا في عددٍ لا يَرْجون لقلتهم وضُعْفِهم الظَّفَرَ كانوا في سَعَةٍ من ترك التغيير باليَد. وهذا هو قول علي بن أبي طالب وكلِّ من كان معه من الصحابة. كذلك هو قول جميع الذين خرجوا على الخلفاء الأمويين والعباسيين وجميع من آزرهم في خروجهم بالسيف (...). وهو الذي تدل عليه أقوال الفقهاء كأبي حنيفة، وشريك، ومالك، وأصحابهم. فإن كل من ذكرنا من قديم وحديث إما ناطق بذلك في فتواه، وإما فاعل لذلك بسل سيفه في إنكار ما رأوه من المنكر»[1].

ثم يورد ابن حزم الأحاديث التي تدعو إلى الصبر على جَور الحاكم، والأحاديث التي تدعو إلى الخروج على الفاسق الظالم، ويقول: «فكأنَّ ظاهرَ هذه الأخبار معارضٌ للآخر. فصح أن إحدى هاتين الجملتين ناسخة للأخرى، لا يمكن غيرُ ذلك. فوجب النظر في أيهما الناسخ. فوجدنا تلك الأحاديث التي فيها النهيُ عن القتال موافقَةً لمعهود الأصل، ولما كانت عليه الحال في أول الإسلام بلا شك. وكانت هذه الأحاديث الأُخَرُ واردةً بشريعة زائدة، وهي القتال. هذا ما لا شك فيه !فقد صح معنى تلك الأحاديث، ورُفع حكمها حين نُطْقِهِ عليه السلام بهذه الأُخَرِ بلا شك. فمن المحال المحرم أن يؤخذ بالمَنْسوخ، ويُتْرَكَ الناسخُ، وأن يؤخذ بالشك ويترَكَ اليقين. ومن ادعى أن هذه الأخبار بعد أن كانت هي الناسخة كانت هي المنسوخة فقد ادعى الباطل، وقفا ما لا علم له به، فقال على الله ما لا يعلم. وهذا لا يَحِلُّ»[2].

(1) نظام الحكم في الإسلام، ص103.
(2) نفس المصدر، ص104.

كان الأئمة الأولون قريـبي العهد بالخلافة كما كانوا أفقه لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسَنَرى وشيكا إن شاء الله مواقف أبي حنيفة ومالك والشافعي وتأييدهم للقائمين ضد الجَوْر. أما المتأخرون فقد قرأنا خوفهم الدال على استفحال الظلم، وانتشار الفساد، حتى انغلقت على الأمة آفاق الأمل. وعندما يدلَهِمُّ الواقعُ إلى هذا الحد فإن النصوص تُنبئ عن الهواجس الوقتية أكثرَ مما تخضع لمعيار الحق الثابت. ويمثل ابن حزم رحمه الله امتدادَ ذلك الجيل الأول الذي كانت مقاومة الظلم دينَهُ، وكانت النصوصُ الشرعيَّةُ الصحيحةُ عنده صريحة لا غموض فيها ولا تناقض. مذهب ابن حزم في أن أحاديث المقاومة إما تنسخ أحاديث الصبر والخضوع، وإما تختص الأولى بعهد فساد الحكم وتنطبق الأخـيرة على ما إذا كانت الخلافة رشيدة. وفي تفصيل ابن حجر الذي يفرق بين المنازعة القادحة في أصل الولاية والمعـارضة الجزئية توفيـق آخر بين الأحاديث المتعارضة.

يمكن القول بصفة عامة إن أهل الحديث من علمائنا كانوا أميل إلى المحافظة على الملك مهما كان عاضا. وفي هذا ما يُستَغْرَبُ لوجود نصوص صحيحة صريحة في وجوب عصيان من لا يطيع الله. أما الفقهاء أصحابُ المذاهب والمعتزلةُ فكان موقفهم في هذه المسألة واحداً. والحافظ ابن حزم يمثل المحدث والفقيه الذي لا تنفصل في عقله النصوص الشرعية عن المقاصد الكبرى للدين. لِنَقُلْ إنه كان ذا وعي سيـاسي حاد. وهذا ما تنطق به القولة المليئة بالأسى، المعبرة عن التضامن مع القائمين بالحق: «خروم الإسلام أربعة: قتل عثمان، وقتل الحسين، ويوم الحَرَّة، وقتل ابن الزبير»[3].

(3) «شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي، ج1، ص68.

المنكر الأنكر !

علماؤُنا المتأخرون تغَذَّوْا بأخبار الفتنة الكُبرى، والانكسار التاريخي، وسقوط بغداد، والغزو التتري، والاستبداد العسكري، وعاشوا أزمانا كانت وحدةُ الأمة مهددَة في روحها، مجزأة إلى إمارات متصارعة، ومذاهبَ متناحرة. فانعكس كل هذا على فكرهم حتى أصبحوا لا يتصورون أن هناك مَخْرجا ممكنا من تلك الحال إلا إلى أسْوَأ منها.

لذلك حاولوا الحِفاظَ على ما يمكن الحفاظُ عليه من أسباب الوحدة، بل من أسباب وجود الأمة واستمرارها. وما حديث الغزاليِّ عن وجوب مساندة صاحب الشوكة الظالم إلا مقدمة لما أصبح بعد ذلك أصلا معتمدا عند الفقهاء. يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «إن النبي صلى الله عليه وسلم شرع لأمته إيجابَ إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكرُ منه وأبغضُ إلى الله ورسوله، فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله. وهذا كالإنكار على الملوك والوُلاة بالخروج عليهم. فإنه أساس كل شر، وفتنةٌ إلى آخر الدهر»[1].

ولعل تلك الأزمنة المضطربة امتازت بالعنف والبأس الشديد بين طلاب الإمارة حتى غاب مفهوم القَوْمَةِ عن عقول الفقهاء، وفقد القائمون بالحق، فلم تر الساحة إلا ثوارا بالمعنى الإسلامي للثورة وهي الخروج غير الشرعي.

(1) أعلام الموقعين، ج3، ص4.

الفصل الثاني

قطع حبال الفتنة

- من لم يهتم...
- دين الجهاد
- دولة القرآن
- القومة الإسلامية

من لم يهتم...

لا أخطر على الأمة من خمول أبنائها، ورضاهم الصامت بدين الانقياد، حتى يصبح من أصولهم الاشتغالُ عن الأمر العام بسفاسف الحياة اليومية. ولا تزال تسمع اليوم من يوصيك أن لا تشتغل بما لا يعنيك، وما لا يعنيك هو سياسة أمتك. لا يعنيك الضَيْمُ النازلُ عليها، لا يعنيك هزائمُها، لا تعنيك المؤامرة اليهودية الصليبية عليها. لا يعنيك الحكام الخونة وعبَثُهُم بمصيرها.

إن عامة أمتنا لا تزال نائمة من أَثَرِ سُبات القرون، استقالت أمام الحكم الفردي عن حقها وواجبها في تصريف شؤونها. فالحكام اليومَ سادة من فوق رؤوس الأمة، لا ينازعهم إلا أحزاب سياسية تنتظم فيها الأجيال التي انقطعت صلتُها بالدين. وتسعى الطبقة السياسية المتمكنة في أجهزة الدولة والإدارة أن تُبْقِيَ الحركة الإسلامية على هامش ما يجري، وتفسدَ سمعتها، وتفصِلَ بينها وبين عامة الأمة بالبهتان المفترى، والتهديد، وكلِّ وسائل المحاصرة. مستعينة في ذلك ومتعاونة مع قوى الجاهلية المتألبة على الإسلام. تلك القوى التي تقودها اليهودية العالمية بتفاهم كامل، وسنَدٍ ماديٍّ ومعنويٍّ من جانب الدول الكبرى.

إنها حرب على الإسلام وأهل الإسلام. وكل مواجهة لا بد لها من تعبئة. وقد آن للأمة أن تهتم بمصيرها وراء قيادتها الطبيعية، وأن توقظها فضائح الزعماء المغَرَّبين، وفشَلُهم الذريع على كل الجبهات، إلى حقائق ما يجري خلف ظهرها من مساومات هي فيها البضاعة البخسة.

موقف الأمة اليومَ حَرِجٌ، والعالَمُ حَلَبَةُ صراع لا يُرْحَمُ فيها الضعيف. فعلى جند الله أن يقتحموا العقبات الحائلة بينهم وبين حيازَة ثقة الأمة ليبثّوا فيها وعيا إسلاميا فعالا، وليرفعوا فيها العزائم والإرادات، حتى يكون التغيير المنشود باسم الله، وعلى يد جند الله، وانطلاقا من كتاب الله، وتأسيا برسول الله. ألا وإن دين الله غير دين الانقياد، وغير ملة الخمول والاستقالة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الحاكم عن ابن مسعود: «**من أصبح وهمه غير الله فليس من الله. ومن أصبح لا يهتم بالمسلمين فليس منهم**». في الجامع الصغير إشارة لصحته.

إن كان حكام الجبر يُعلنون اليوم انتماءهم للإسلام لاحتواء الصحوة الإسلامية وتملق الأمة الغَيورة على دينها، فلطالما برهنوا بمواقفهم المخزية أنهم قلبا وقالبا مع أعداء الإسلام، ومع المتنكرين لعقيدة الإسلام. فكفرهم البَواح، ومعصيتُهم لله الصُّراحُ، يُقصيانهم عن دائرة الإسلام. ويُقصي الإسلام أيضا من لم يهتم بالمسلمين ومصير الأمة كما قرأنا في الحديث.

أمامنا واجب مقدس تُجاهَ الأمة، وهو أن نعلمها أن الدين ما هو صلاة ناعسة وصيام وتنسك وحوقلة عاجزة في المساجد، لكنه جهاد شامل، إقامة الصلاة والصيام والزكاة والحج أركانه المنبثقة عن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. وهي شهادة تحرر من عبودية البشر، وظلم البشر، ووصاية الحاكم الجائر على الأمة.

على رجال الإسلام أن يحركوا الهمم النائمة لينفُضوا غبار الخمول، ويُحْيوا شهامةً ترفُضُ الذِّلَّة، ويُجددوا إيمانا يُذهب عنا الوَهْن وغثائية تُفتتنا أشلاءً. روى الطبراني عن أبي ذر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من أصبح وهمُّه الدنيا فليس من الله في شيء. ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم. ومن أعطى الدنية من نفسه طائعا غير مكره فليس منا**».

إعطاء الدنِيَّة هو الرضى بالذل، هو الخضوع للظالمين. وبيننا وبين أن تصبح القومة الإسلامية حقيقة تاريخية أن تتغلغل العزة بالله في نفوس الأمة، حتى يصبح الموت أحب إلينا من حياة الهَوان، وحتى تكون الشهادة في سبيل الله أغلى الأماني، وحتى تكون الذلة المضروبة علينا أبغضَ إلينا من كل بغيض. من كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «ما ترك قوم الجهاد إلا ضربهم الله بالذل». ولا ذل أشنع من احتلال اليهود مسجد الله المقدس يسوموننا فيه سوء العذاب. وحكام الجبر يعقدون الهدنة، يصنعون «السلام» الذليل، لا هَمَّ لهم إلا البقاءُ على الكراسي.

الأمة ضحيةُ الدعايات ضد الإسلام، والشبابُ ضحية التهريج والتهييج باسم الثورة والتقدمية والقومية، وتاريخُنا اليوم سلسلة اضطرابات وانقلابات لا قرارَ لها. غُثاء يَذهب به السيل كلَّ مذهب. والقومة تعني نهضة، ولا ينهض الجسم العليل المفَكَّك. القومة تعني حركة إرادية، ولا يتحرك الأشل. القومة تعني تغييرا للمنكر، ولا يُغيِّر المنكرَ من لا يعرف المنكرَ في أسبابه، ودخائله، وماضيه، وحاضره، وحُماته. القومة تعني جهاداً منظما، ولا جهاد بدون تربية الأمة وتعبئتها للجهاد المرير الطويل.

دين الجهاد

كانت القضية التي دار حولها صراع الفتنة في تاريخنا، واختلفت حولها آراء العلماء والفقهاء، هي قضية السلطان وعدالةِ الحاكم. فالصراع على السلطان لا يزال اليوم الظاهرةَ الأولى في مجتمعاتنا. الحكم العادل لا يزال مَطْلَبا مفقودا. بيد أن هذا المطلب الذي

يُتَرْجم عنه جند الله، ويخططون لبلوغه، وينظمون الصف للزحف نحوه، لم يعد يكفي أن نقدمه لأنفسنا وللأمة في رداءِ مثاليَّةٍ عاطفية. لا يكفي أن نطالب بدولة القرآن، وحكم القرآن، دون أن نُفَصِّلَ ما نعني بدولة القرآن. ما هو تصورُنا لوحدة المسلمين، واقتصادِ المسلمين، ونظام حكم المسلمين، وخصائص مُجتمع المسلمين. من هم خصومُ المسلمين وأعداؤُهم. من هم أصدقاء المسلمين وحُلفاؤهم. ثم كيف ينتقل هذا التصورُ إلى ميدان العمل. وقبل كل شيء هل الإسلام صالح ليقود ثورة ؟ هل هو دين إصلاح ؟ هل تكون دولة القرآن امتداداً للخلافات الإسلامية ونسخة منقحة منها ؟ أم جمهورية عصرية تأخذ من هنا وهناك ؟ أم هي عودة لحضارة الجمل ؟

استعملت هنا كلمة «ثورة» لأن السائل لا يَطِنُّ في أذنه إلا كلامُ الوقت، ويكتنف ذهنَه غموض صنعه الجهل بالإسلام، وصنعته الدعاية ضد الإسلام، وأعانت على صنعه ذهنية الانقياد المزمنة، وآثار الانقياد المزمن.

فذلك المتسائلَ من دنيا غموضه نخاطب، وإليه يتوجه هذا الكتاب يوم يعود إلى الله عز وجل فيرضى به ربا، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيرضى به نبيا وقدوة، وإلى حضن هذه الأمة المباركة فيشاركَها في جهادها.

يعني الرضى بالله ربا أن يكون كلامُه العزيز نورَ القلوب، به تستضيء فتحبَّ ما يحبه الله، وتكرَهَ ما يكرهه الله، وهدايةَ العقول تتلقى أوامر الله فتنفذ بالحكمة ما أثارته في القلوب الرحمة. ويعني الرضى برسول الله صلى الله عليه وسلم نبيا وقائدا السيرَ على خطاه الشريفة. ويتساءل الجاهل والمغَيَّمُ

الفكـر: هـل يسـتوعب القـرآن وتسـتوعب السـنة كل مشـاكل الحـاضر والمسـتقبل في عـالم متحـرك ؟ كيـف والقـرآن نـصٌّ ثابت منـذ قـرون، والسـيرة تاريـخ مـضى، والأرض اليوم غـيرُ الأرض، والنـاس غـير النـاس ؟

حاشا لله أن يكون القرآن نظرية ثورية أو مذهبا سياسيا أو حلا اقتصاديا فيمكنَ مقارَنتُه بمذاهب الأرض! وما فقد القرآن حيويته الأولى التي دفعت ووجهت أمة القرآن لجلائل الأعمال. إنما خمدت إرادة الجهاد في نفوس أجيال لم ترب على الإيمان فأخلد بها دين الانقياد إلى أرض الخمول. والقرآن لا يزال هو كلمة الله الأخيرة الكاملة للجان والإنسان. تتضمن خير الإنسان والجان دنيا وأخرى. لا تحتاج لزيادة ولا تعديل. وقومة الإسلام لا يمكن أن تنطبق عليها هذه الصفة إن استعارت من خارج القرآن ورسول القرآن مبادئ وأهدافاً.

وكما أن القرآن نزل حيا على أمة حية تجاهد، وتنتصر، وتبني، وتعاني، وتصبر، ففي ثناياه بذور حياة مستجدة، وجهاد مستجد، ونصر مستجد. كما أن القرآن وجَّه التربية، وتعبئة الأمة، وتأليف صفها، واتخاذ أسباب جهادها، ففيه، وهو كلام الله الخالد، أسرار التربية، والتعبئة، والتأليف، وحيلة الأسباب، وحادي الجهاد، الضرورية لقومة التجديد.

إن القرآن شرع لمجتمع حي متشعبةٍ شؤونُه في الأمن، والخوف، والعطاء، والمنع، والقضاء، والحكم. فالشريعة خالدة، وأصول الاجتهاد معروفة، لإعادة شرع القرآن إلى الصدارة، والهيمنة على شؤون الأمة، تحت دولة القرآن.

لا بد من قطع حبال الجاهلية على كل المستويات. وأول ما يجب استئصاله من نفوس الأمة التبعية للحاكم المستبد، ومن عقول ذرارينا التبعيةُ الفكرية التي توهمهم أن لا خلاص من ظلم الجبارين إلا عن طريق نظرية ثورية تأتي من خارج الإسلام.

لا بد من قطع رباط الإعجاب والانبهار بنماذج الثورات العالمية الجاهلية، لنعيد الوصلة بالسيرة النبوية المجيدة، منها نستمد الخِبْرَة والأسوة، منها نستقي الرحمة والحكمة. قد تكون سطحيةُ المتمرس بفكر الجاهلية، المندمجُ في حضارتها، وغِشاوةُ القلب، وعَماية الفِكر، المانِعَةَ من إدراك عمق التجربة التاريخية المحمدية وسموّها. وقد يكون ما في العصر من اكتظاظ بمصنوعات الإنسان، وبضائعه، وأسلحته، الحجابَ الذي يقف سَدا بين المعجَبين بالجاهلية وبين فهم التفوق الإنساني والحضاري للمجتمع النبوي في بساطة بيئته.

قد يكون الفقر الفكريُّ، والضُّمورُ الوجْدانيُّ، والعِداء للإسلام، صادَّةً لذوي النيات المشبوهة عن الاعتراف بِغِنَى القرآن وغِنَى السيرة النبوية بالأمثلة الحية لرجال دعوا النفس البشرية للتسامي عن خسة الأرض ودَنَسها، لكنَّهم جاهدوا لتأمين ضرورات الأرض من عدل، وإنصاف، وطعام، وأمن، وأُخُوَّة. قاتلوا في سبيل ذلك وقُتلوا. قادوا المعارك، ونظموا المجتمع، وربَّوْا الرجال، وسهروا على عدالة القسمة، وأوصوا بالعمل المنتج النافع.

لعل الانبهار بالثورات الجاهلية أخذ يَخبو بهرَجُه لما ظهر من تفوق الثورة الإسلامية الإيرانية، ذلك التفوق الذي شهد به الأعداء. ملايينُ من الرجال والنساء والأطفال واجهوا الجيش الخامس في العالم بصدور مُعرَّضة وأيدٍ عزلاء. وانتصروا. إنها تجربة إسلامية في هذا العصر. رصيد حصل في ذاكرة الإسلام مهما كانت أخطاء الرجال

بعد ذلك. وأنصعُ في قلوب المؤمنين جهاد أفغانستان المجيدُ ودَحْرُ أعظم دُوَلِ الجاهلية. آية عُظْمى لظهور الإسلام.[1]

دولة القرآن

كان هَمَّ رجال القومة في الإسلام طردُ الحاكم المستبد وفئَتِه الباغية ليقوم غيرُه مقامه. كان القائمون رجالا صلحاء نهضوا لطرد قوم مفسدين. لم يكن أحدهم بحاجة لطرح برنامج أو إعلان بيان. يكفيه أن ينتقد المفسدين ويبين انحرافهم عن القرآن والسنة. وكان النهي عن المنكر الذي أنكره القائمون بالسيف هو البرنامج والخطة. فمتى انهزم المفسدون، وطهرت الأرض من رجسهم، عاد شرع الله إلى ما تعرفه الأمة. واليوم اختلط المنكر المفروض بالقهر بالمعروف المنْسي القاعدِ عنه أهله. فلا يكفي أن يُطْرَدَ المجرمون. ومن يحتل الكراسي، ويُصدر بيانات القومة، لن يوثق بإسلامه إن لم يأت معه بمنهاج ينكر المنكر، ويعرف المعروف، وبمشروع مجتمعي يوضح كيف يغير المنكر بالمعروف. ثم لا يكفي ذلك حتى يبرهن رجال السلطان الجديد بأنهم جادون فيما هم مقدمون عليه، قادرون على إنجاز المهمات وقيادة الأمة.

يُسمَّى اليوم ثورةً كلُّ عنف، وكل انقضاض على السلطة، وكل استبدال لوجوه بوجوه، ولشرطة بشرطة، ولعصبية بعصبية. ولا تلبث الوجوه الجديدة بعد مرحلة تصفية الخصوم أن تدخل في مرحلة التصفيات بينها. ويعود البلاء أسوأ مما كان. والقومة الإسلامية

(1) كُتب هذا والجهاد الأفغاني في عنفوانه وانتصاره. ثم استيقظت القبلية والخلافات، وتقاتل المسلمون. وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

لن تكون قومة ولا إسلامية إلا بقدرة رجالها على التماسك فيما بينهم ليواجهوا الانحلال وإغراءه. لن تكون كذلك إلا بقدرتهم على إبطال الباطل وإحقاق الحق. وسيرثون الخراب والفراغ والهياكل النخرة. فما أشق المهمة !

لا مكان للكسالى وعشاق الجاه والسلطان بين جُندٍ هذه قضيتهم وهذه معاركُهم. كيف يصمد الكُسالى وطلاب الرئاسة أمام إغراء الترف، وسهولة التفرغ للاستمتاع «بالنصر»، واستعمال الهياكل النخرة من أشخاص ومؤسسات لتسيير العجلة الاقتصادية والإدارية ؟ كيف يقاومون عدوى التقليد للثورات الجاهلية، وكيف يخرجون من رِبقة الاختيار المزدوج بين الحفاظ على الرأسمالية أو «بناء الاشتراكية» ؟

القومة الإسلامية

إن القومة الإسلامية تطلب سلطانا قويا، لا شك في ذلك. والسلطان القوي غيرُ السلطان العنيف وغيرُ حكم القمع. لكن أسبقَ شيء تحتاجه القومة، وأهم شيء، وأجدى شيء، هم رجال قرآنيون نبويون. من الأمة وإليها ومعها. لا ليفعلوا بها، بل ليوقظوها، ويربوها حتى تصبح فاعلة.

دولة القرآن إذن، وقومة القرآن، ليست عملية انقلابية نخبوية، بمقتضاها ينتصب جماعةٌ وُكلاءَ على الأمة، أوصياءَ أبَدَ الدهر على مصيرها. قد تكون الخطوةُ الأولى في القومة من عمل جماعة محدودة. لكن إن لم تجعل هذه الجماعة هدفَها الأولَ إخراجَ عامّة الأمة من دين الانقياد، وخمول الاستسلام، ولم تحارب ذهنية الرعوية القطيعية، فستكون حركتُها مغامَرَةً فاشلةً.

روى أبو هلال العسكري في كتاب «الأوائل» أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لما عزل سعد بن أبي وقاص، بطلب من الرعية، خطب فيهم فقال: «إني عزلت عنكم سعدا، فأخبروني: إذا كانَ الإمام عليكم يمنعكم حقوقَكم، ويُسيء صحبتَكم ماذا تصنعون ؟» قالوا: «إن رأينا خيرا حمدنا الله، وإن رأينا شرّاً صبرنا». فقال عمر: «لا والله لا تكونون شهـداء في الأرض حتى تأخذوهم في الحق كأخذهم إياكم فيه، وتضربوهم على الحق كضربهم إياكم عليه. وإلا فلا !».

«تضربوهم على الحق كضربهم إياكم عليه». علاقة بين الحاكم والمحكوم توجب الحق، احترام الحق، على الكل. وقد رأينا في الحديث الصحيح كيف بايع عُبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يقول الحق لا يخاف في الله لومة لائم. معارَضَةُ الحاكم واجبٌ شرعي إن حاد عن الحق. وضربه عليه واجب. لا يقبلها الإسلام فوضى، فلا بد من وضع إطار «للضرب» والقول في الحق بلا خوف.

لعنةٌ حلت على الناس منذ أمسكوا عن النهي عن المنكر وعن الأمر بالمعروف، وتركوا الحاكم حراً يهتك الأعراض، ويضرب الأبشار، ويحتجن الأموال، ويُحابي في الولاية، ويعطِّل الحدود، كما قرأنا عند أبي يعلى.

قال الله جلت عظمته: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ كَانُواْ لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ**﴾[1]. أخرج الإمام أحمد وأصحاب السنن غيرَ النسائي عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لَـمّا وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤُهم فلم ينتهوا. فجالسوهم في مجالسهم**-قال يزيد: أحسبـه قال: **وأسواقهم**-

(1) المائدة، الآيتان: 78-79.

وواكَلوهم وشارَبوهم. فضرب الله قلوبَ بعضهم ببعض، ولعنهم على لسـان داود وعيسى بن مريم. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئا فجلس فقال: «**لا والذي نفسي بيده !حتى تأطِروهُم على الحق أطرا**» !. الحديث رواه الترمذي وحسنه.

تضربوهم على الحق، تأطِرُوهم على الحق. أمة حية مشاركة مجاهدة.

وجاء عند عبد بن حميد حديث رواه عن معاذ بن جبل، فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن رحى الإسلام ستدور، فحيثما دار القرآن فدوروا معه. يوشك السلطـان والقرآن أن يقتتلا ويتفرقا ! فإنه سيكون عليكم مُلوك يحكمون لكم بحكم ولهم بغيره. فإن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم.** قالوا: يا رسول الله ! فكيف بنا إن أدْرَكنا ذلك ؟ قال : **تكونون كأصحاب عيسى: نُشروا بالمناشير ورُفعوا على الخُشُب ! موتٌ في طاعة خير من حياة في معصيةٍ ! إن أول ما كان نَقَصَ في بني إسرائيل أنهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر شِبْهَ التعزير. فكان أحدهم إذا لقي صاحبه الذي كان يعيب عليه آكَلَهُ وَشَارَبَهُ، كأنه لم يعب عليه شيئا. فلعنهم الله على لسان داود، وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهَوُن عن المنكر أو ليسلطَن الله عليكم شِراركم، ثم ليَدعُوَنَّ خيارُكم فلا يستجاب لهم. والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهَوُنَّ عن المنكر ولتأخُذُنَّ على يد الظالم فلَتَأطِرُنَّه عليه أطرا أو ليضربن الله بعضكم ببعض**» .

مقاومةُ الظلم حتى الموت ولو نشراً بالمناشير واجب الطليعة المجاهدة. لكن إقامة دولة القرآن ونجاحَها في بناء الأمة وحملِ

الرسالة رهنٌ بسَرَيان روحِ المقاومة في عامة الأمة حتى يصبح المعروف سيدا، والمنكر مرذولا مطَرودا على كل المستويات، وفي كل الميادين. استعملت كلمة «طليعة» وهي مقدمة الجند المجاهد. وفي البخاري: «باب فضل الطليعة». فاستعمالنا لها يحمل هذه المعاني الجهادية، لا شركة له مع تعابيرهم العصرية النضالية إلا في اللفظ.

ثم مقاطعة الظالمين: لا نواكلهم ولا نشاربهم ولا نجالسهم. وهذه هي الصيغة المثْلَى للقومة. فلو قدرنا أن نتجنب استعمال السلاح ضد الأنظمة الفاسدة، ونقاطعها حتى تشل حركتها، ويسقطَ سلطانُها، وترْذُلَ كلمتُها كما فعل إخواننا في إيران، لكان ذلك أشبهَ شيء بروح الإسلام الذي يوصي ألا تسفك دماء المسلمين بينهم. وهذا يقتضي صبرا واستشهادا وصمودا. ذلك أنَّ رُوَادَ الباطل وسَدنَتَهُ لن يتعفّفوا عن استعمال سلاحهم وبطشهم الشديد. وكذلك كان في إيران. على أنّ المقاطعة والمقاومة الصابرة، متعانِقَيْنِ، قد لا تتأتى ظروفهما في كل قطر من أقطار الإسلام. وقد لا يناسب هذا الأسلوب حالات يكون فيها الحاكم الباطش متمثلا في شرذمة ثعلبية مستأسدة كما هو الحال اليوم في سوريا. على كل حال فإشراك الأمة في تقويض الباطل ركن من أركان القومة. وإشراكها في بناء الحق ركن ثان.

جاءنا تفصيل الفروض العينية في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تؤكد ما أجملَتْه أحاديثُ الاهتمام بأمر المسلمين. جاءت مقاومة السلطان الجائر، ومقاطعة أهل البدع والكبائر، والتفطن للجور وسدنته، والنصيحة لله ولرسوله وكتابه وخاصَّةِ المؤمنين وعامَّتِهم.

هكذا رُسِمَ لنا المنهاجُ، وخُطَّتْ لنا الطريق، ووُصِفت لنا القنوات التي من شأنها أن تجمع غضب الأمة على المنكر حتى يصبح الغضب

لله سيلا يجرف الباطل، ثم ترجع الطاقات المؤمنة إلى مجاريها لتسقي الغِراسَ القرآنِيَّ وتبني القوة. فإن دَفَعَتْ رياح الغضب الثوريِّ الهُوجُ إلى عنف بلا قيود فإنما هي ثورة -بالمعنى الإسلامي- ستخمد. ويومئذ تكون أُختاً للانقلاب من أعلى، وصاية على الأمة، وأطْراً لها على شهوة الحاكم.

الفصل الثالث

من القومة المسلحة
إلى الاحتجاج الصامت

- دعاة إلى الله
- الأمة مع المصلحين
- تـرف

دعاة إلى الله

نذكر إن شاء الله في بَقية هذا الكتاب مواقف لرجال تراوح صدامهم مع الملك العاض والجبري بين القومة المسلحة والمقاطعة الصامتة ومحاولة الإصلاح. نذكر الصحـابة فهم السابقون، ثم نذكر القائمين من آل البيت فهم أحق بالصدارة. ثم نرتب الرجال حسب ترتيبهم التـاريخي. لا نستقصـي، ولا يمكن ذلك، لأن رجال القومة والإصلاح في تاريخنا أكثر من أن يحدهم حساب. فالأمة خِصبة وَلودٌ والحمد لله.

مُنِيَ الإسلام منذ أدبرت الخلافة وجاء الملك بعد ثلاثين سنة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتن مُدْلَهِمَّةٍ، بدأت بمقتل الإمام عثمان، ثم تلا ذلك الانكسار التاريخي في حروب الجمل وصِفِّينَ، وقِتالِ الخوارج، وقتل الإمام علي. ثم ظهر يزيد بن معاوية ذلك الغلام القرشي اللعوب الظالم. ثم كانت الثورات الداخلية، والهجماتُ الخارجية على الإسلام والمسلمين، متسلسلةً أوهنت قدرة الأمة على المقاومة، فلم تبق إلا شوكة الإسلام الممثلة في نظام الخلافة الاسمية والإمارات المستبدة.

فمن رجال القومة من أدرك أصل الداءِ، وهو فساد الحكم، فبادر لعلاجه. ومن رجال الإصلاح من تَنَازَعَهُ عاملا الخوف على شوكة الإسلام أن تنكسر، وواجبِ النهي عن المنكر وأطْرِ السلطان على الحق، فاكتفى بالوعظ، والمقاطعة، والتوجه إلى الأمة لتعليمها، وتربيتها، وتغذيتها بروح المقاومة.

لم تنقطع في تاريخنا الطويل سلسلةُ الرجال القائمين بالقسط. كتب الشيخ أبو الحسن الندوي في هذا الموضوع ما يلي: «من الحقائق

التاريخية أن تاريخ الإصلاح والتجديد متصل في الإسلام. والمتقصي لهذا التاريخ لا يرى ثَغْرة ولا ثَلْمَةً في جهود الإصلاح والتجديد، ولا فترة لم يظهر فيها من يعارض التيار المنحرف، ويكافح الفساد الشامل، ويرفع صوت الحق، ويتحدى القوى الظالمة أو عناصر الفساد، ويفتح نوافذ جديدة في التفكير»[1].

وكيف تنقطع السلسلة ورسول الله صلى الله عليه وسلم وعد بظهور مجددين. روى الإمام أحمد والطبراني والحاكم بسند صحيح عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**». وقد اختلف العلماء في تعيين مجدد كل قرن، وإن كانوا جميعا يتفقون على شخص عمر بن عبد العزيز مجددا للقرن الأول. وسنخصص إن شاء الله فصلا لهذا الرجل العظيم في غير هذا الكتاب.

إن الأمة الموعودة بالظهور والخلافة في الأرض كانت ولا تزال بحاجة لرجال يُذْكُونَ فيها جِذْوَةَ الإيمان، ويُربون، ويُعلمون، ويُجددون ما بَلِيَ من عقيدة، وما فسَد من أخلاق، وما تبَلَّد من عقول، وما فَتَر من همم. أكابرهم ظهروا ويظهرون في فترات طويلة عيَّنَها الوحي بمائة سنة. وخلال كل قرنٍ رجال مجددون تابعون، يحافظون على ذكرى جهادٍ مضى، أو يهيئون جهادا مقبلا. وهكذا إلى الإمام المهدي عليه السلام.

تخَلَّى الملوكُ المرْتَدُونَ زوراً اسمَ الخلافة عن مهمة الدعوة. بل الدعوة تخلت عنهم لأنهم ليسوا أهلها. وعاد لعلماء الأمة وصلحائها واجب تجديد البيعة والميثاق الواصل بين العباد وربهم.

(1) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، الطبعة الثالثة، دار القلم الكويتية، ص26.

كتب الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله قال: «كان المسلمون في حاجة إلى دعاة وشخصيات قوية جـامعة، تجمع بين تلاوة الآيات، وتعليم الكتاب والحكمة، وتزكية النفوس. وهكذا تَخْلُفُ الرسول صلى الله عليه وسلم في أمته بعد انقطاع النبوة، وتجدد صلتها بالله، وتجدد الميثاق الذي دخلت فيه الأمة والمسلمون جميعا عن طريق الإيمان والنطق بالشهادتين، وما عاهدت عليه وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع بُعد الزمان والمكان، من السمع والطاعة، ومخالفة النفس والهوى والشيطان، والتحاكم إلى الله ورسوله، والكفر بالطاغوت، والمجاهدة في سبيل الله. فقد تغافل الخلفاء واقتصروا على الجباية والفتـوح، وأخذوا البيعة لأنفسهم وأولادهـم»[2]. وأضع كلمة «الخلفاء» بين مزدوجتين لحصر التزييف في حدوده.

إن الإسلام دين الله الخالد، حبلُه موصولٌ بين السماء والأرض بوصلة النبوة والرسالة، موصول بين الأجيال الإسلامية بواسطة ورَثةِ النبوة، حَمَلَةِ الرسالة، علماء الأمة العاملين. فلكيلا تتكدس أمامنا مخلفاتُ التاريخ وإنتاجـات التراث الفقهي والعلمي فتحجب عنا ذلك النور النبوي، يجب أن نتبع ذلك القَبَسَ النبوي وهو ينتقل من جيل لجيل، صفاءً في العقيدة، واستقامةً في الدين، وصلابةً في الحق، وجهاداً مع الأمة.

لا نستهين بما تعطينا دراسة التاريخ من دروس، ولا ننكر فضل الفقهاء الذين أثَّلوا لنا تراثا زاخرا بالعلم والاستنباط، ولا فضل علماء الأمة الذين خدموا القرآن والسنة، ودونوا وعلموا. لكن المجددين وحدهم خليقون بإكبارنا ومحبتنا الخالصين. أولئك الذين آلت إليهم وظيفة الدعوة إلى الله، ورِثُوهَا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(2) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، ص280.

وحملوا أعباءها بعد أن انفرد الملك بالجباية وتصريف أمور الدنيا، وبقيت الوظيفة الأساسية للخلفاء الراشدين، وهي الدعوة إلى الله، شاغرة معطلة، بل محاربة من جانب حكام العض والجبر.

اختلف السلطان والقرآن كما جاء في حديث عبد بن حميد السابق، وقاتل السلطان القرآن. حدث هذا منذ فجر تاريخنا، ولا يزال قتال السلطانِ القرآنَ على أشُدِّهِ بين أنصار الحق وسَدنَةِ الباطل. لذا فدولة القرآن المنشودةُ يجب أن تكون امتدادا للدعوة النبوية، لا بديلاً سلطانيا للأنظمة القائمة. وأهل القرآن أهلُ الله من رجال القومة والإصلاح هم سلفُنا الذي حاربوا الظلم مثلما نحارب، وانتصروا للحق مثلما نرجو الله أن ننتصر. منهم كُمَّلُ الورَثَةِ المحمـديين، من جمع الله لهم بين العلم الواسع، والفقه والجهاد أمثال سيد الشهداء الحسين بن علي وسائر أئمة آل البيت الطاهرين. ومنهم من كان قِمة في العلم والإصلاح أمثال أئمة الفقه الأربعة. ومنهم من كان جهادُه أكثر من عِلمه. والكل سلَفٌ لنا رحمهم الله وألحقنا بهم مسلمين.

الأمة مع المصلحين

كان أخْوَفَ ما يخافه حكام الجوْر أن تلتف الأمة حول رجال القومة والإصلاح. فكان الملوكُ يضطهدون المصلحين، ويبطِشون بالأمة بطش الجبارين، ليصرفوا وجوه الناس عن الرجال. ذكر الطبري في أحداث سنة 121 كيف حارب هشام بن عبد الملك أنصار الإمام زيد بن علي، ونقل كتابه إلى عامله على الكوفة يأمره بقمع القومة بين أفراد الأمة. قال له: «فادع إليك أشراف أهل المصر، وأوْعِدْهم العقوبةَ في الأبْشارِ، واستصفاءَ الأموال. فإنَّ من له عَقدٌ أو عَهد منهم سيبطئ عن زيد، ولا يَخِـفُّ معه إلا الرَّعَاع وأهلُ السواد ومن تُنْهِضُه الحاجة

(...) فبادِرهم بالوعيد، واعْضُضْهُم بِسَوْطك، وجرد فيهم سيفك، وأخِـف الأشرافَ والأوساط قبل السِّفْلَةِ»[1].

الأشراف الأغنياء يخافون بمجرد التهديد. أما سوادُ الأمة «الرعاع» فهم المستضعفون الذين يعَضُّهم السوط، ويُجَرَّدُ فيهم السيف. وفي قوله: «أخِف الأشرافَ قَبْل السِّفْلَة» دليل على أن دعوةَ الإمام زيد جمعت على كلمة واحدة صفوفَ الأمة، ودليلٌ على أن الملوكَ مفسدون في الأرض، إذ يفرقون الأمة طبقات ليستندوا إلى فئة المستكبرين.

كان الملوك قد بلغوا من الترف والاستعلاء على الأمة ما جعلهم ينظرون إلى الأمة نظرتهم إلى «الرعاع»، وحياة «الرعاع»، وحقوق «الرعاع». كانوا مترفين مات فيهم الشعور الديني وحس الإنسانية. فلا أكْرَهَ عندهم ممن ينـزل للأمة يواسيها في آلامها ويقودها لكرامتها.

تـرف

منذ أن ولّت الخلافة الراشدة واستقرت عاصمة الملك في دمشق تسربت عادات الملك البِزَنطي وأنماطُ حضارته وترفه إلى الملوك على المسلمين. نُسِيَت الوظيفةُ الدعَوِيَّة التي ما كان على كل حال مؤهلا لها أمثالُ يزيد والوليد والزمرة. كانت دمشق مدينة حضارة وبَذْخ، فكثرت النفقات، وتوسع المِلكُ وحاشيته في الأموال، واختصوا بالعقارات، وثَقَّلوا الجبايات، واستعملوا «الرعاع» لخدمة الأرض.

وكانت الجِبايةُ تَجْمع في حَوْزَة «الأشراف»من بني أمية وصنائعهم خيراتِ بلاد المسلمين الواسعة ومنتوجاتها. كما كانت التجارة مع

(1) «تاريخ الطبري»، ج 8، ص 226.

شعوب الأرض تُدْفِقُ على العاصمة الأقمشة الثمينة، والصنائع الحضرية، والخمور.

وكانت تجارة الرقيق تحريفا فظيعا لنظام الرِّق في الإسلام. وهو نظام وضعه الله عز وجلّ إطارا لمعاملة أسرى القتال معاملة تقرِّبُهم منا، وتحبب إليهم الدين، وتربيـهم عليه، ثم تحـررهم لينطلقوا دعاة للإسلام في بلادهم. وما بقي منهم في بلاد المسلمين فهم أصهار وموالٍ. ويَعني ولاءُ المولى لقبيلة إسلامية وأسرة مسلمة اندماجَ أسير أمس الغريب في المجتمع المسلم، وعودَة كرامته إليه بين قوم فتحوا له بيوتهم أخا مُكَرَّما.

حَوَّل الترف الملوكي «الأشرافي» هذا النظام الرحيم الحكيم إلى وسيلة لإرضاء الشهوات وعمران قصور الدعارة.

فلما انتقلت العاصمة لبغداد مع الدولة العباسية ازداد الترف الملوكي رِقَّة وبَذْخا بتأثير الحضارة الفارسية الكسروية. وازدادت الجباية، وتكدست الأموال في أيدي «الأشراف»، فتكونت طبقة توالي الحكم وتتملقه، وتعيش طفيلية على موائد الملوك، لا أعني بالموائد والتطفل ما يرد في حكايات «ألف ليلة وليلة» من دخول بائس جائع مع الناس إلى مأدبة. أعني بالمائدة خيرات الأمة المنهوبة.

وصحب الترفُ والجبايةُ النظامَ المستبد طيلة تاريخنا، وفي ركابهما الظلمُ والتعسفُ والحرمانُ، وهي نصيب «الرعاع» المستضعفين.

في مجتمع مثل هذا أفسد فيه الاستبداد أخلاق الناس، ونهب أموالهم، وبدد صفوفهم، يقوم المصلحون فيجدون آذانا صاغية. وكان ترف بني مروان والعباسيين مضربَ الأمثال. فلولا البؤسُ

الأسودُ الذي كان يسود المحرومين المستعبدين لما انتشرت الثورات المخربة، ثورات المشعوذين والأفاكين، إلى جانب القومات على الحق.

كان النـاس تحـت بنـي أميـة ثلاثـة أصنـاف: «أشراف» أمويـون، وعـرب، ومـوال. وكلمـة مـولى في قامـوس العصبيـة المروانيـة مليئة بالاحتقـار.

وتحت العباسيين تكونت طبقة «الأشراف» من رجال السيف من فارس ورجال القلم حينا من الدهر من العرب. حتى دالت العصبية من العرب وبقي اسم «الخليفة» رمزا للمجد الغابر.

ثم سادت «إمارات الاستيلاء» على يد أجناس العجم والديلم والبربر. وتعجمت الناس، بل تخلَّلَ المجتمعَ الإسلاميَّ حضارةُ الشعوب المغلوبة المتفوقـةِ في الفنون والصنـاعات. استعجمت القلوب والعقول وإن تعربت الألسن.

لكل مقام مقال. وفي مقام غير هذا كنا نتبنى إنجازات المسلمين ونفخر بقدرتهم عل صهر مساهمات الشعـوب التي أسلمت في حضارة بارعة مشرقة. لكننا هنا نحلل مساوئ الاستبـداد وما يواكب الاستبداد من فساد. ونقصد بالعروبة الإسلام، وبالعُجْمَةِ رِقَّةَ الدين.

كتب حكيمنا ابن خلدون قال: «أهل الدول أبدا يقلدون في طور الحضـارة وأحوالها الدولة السابقة قبلهم. فأحوالَهم يشاهدون، ومنهم في الغالب يأخذون. ومثلُ هذا وقع للعرب لـمّا كان الفتح وملكوا فارس والروم، واستخدموا بناتهم وأبناءهم. ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة. فقد حُكِيَ أنه قُدِّمَ لهم المرَقَّقُ (خبز رقيق) فكانوا يحسبونه رِقاعاً (جلودا رقيقة يكتب عليها).

وعَثروا عل الكافور (طيب) في خزائن كِسرى فاستعملوه في عجينهم ملحا. وأمثال ذلك».

أقول: يا مرحى بالفاتحين الذين عرفوا الله ورسوله ! ما يضيرهم الجهل بمظاهر الترف ووسائله !

قال: «فلما استعبَدوا أهلَ الدُّوَلِ قبلَهم، واستعملوهم في مِهَنِهم وحاجات منازلهم، واختاروا منهم المهَرَة في أمثال ذلك، والقَوَمة عليهم، أفادوهم علاجَ ذلك والقيامَ على عمله، والتفنُّنَ فيه. مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله. فبلغوا الغاية في ذلك، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال، واستجادةِ المطاعِم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفُرُشِ والآنِية وسائر الماعون والخَرْثِيِّ[1] . كذلك أحوالهُم في أيام المباهاة والولائم وليالي الأعراس. فأتوا من ذلك وراءَ الغاية. وانظر ما نقله المسعوديُّ والطبريُّ وغيرهما في إعراس المأمون ببوران بنت الحسن بنِ سهل، وما بذل أبوها لحاشية المأمون حين وافاه في خِطبتها إلى داره بفم الصلح، وركب إليها في السفين، وما أنفق في إملاكها، وما نَحَلَها المأمون وأنفق في عُرسها، تقِفْ من ذلك على العجب. فمنه أنَّ الحسنَ بْنَ سهل نثَر يوم الإملاك في الصَّنيع (الحفل) الذي حضره حاشيةُ المأمون. فنثر على الطبقة الأولى منهم بَنادقَ المسك (كرات)، ملتُوتَةً على الرِّقَاع بالضِّياع والعَقارِ، مُسَوَّغَةً لمن حصلت في يده. يقع في يد كل واحد منهم ما أدَّاه إليه الاتفاق والبَخْتُ. وفرق على الطبقة الثانية بِدَر الدنانير، وفي كل بِدْرَةٍ عشرة آلاف. وفرق على الطبقة الثالثة بِدَرَ الدراهم كذلك. بعد أن أنفق في مُقامَةِ المأمون بداره أضعافَ ذلك.

(1) الخَرْثِيّ: أثاث البيت بأنواعه.

ومنه أن المأمون أعطاها في مَهرها ليلة زفافها أَلْفَ حصاة من الياقوت، وأوقد شموع العنبر، في كل واحدة مائةُ مَنٍّ، وهو رطل وثلثان. وبسط لها فراشا كان الحصيرُ منها منسوجا بالذهب، مُكَلَّلاً بالدُّرِّ والياقوت. (...) وأعَدَّ بدار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نَقْلَ مائةٍ وأربعين بغلا مدةَ عام كامل ثلاث مرات كل يوم. وفَنِيَ الحطب لليلتين (...)، وأوعز إلى النُّواتيَةِ بإحضار السُّفُنِ لإجازة الخَوَاصِّ من الناس»[2].

طبقات مترفة وقصور وخواص من الناس. وبجانب هذا البؤس الأسود.

ضد هذه البيئة الفاسدة تحرك القائمون والمصلحون غضبا لله عز وجل على من أضاعوا الدين، ونُصرةً للمظلومين المستعبَدين. «جاء محمد بن إبراهيم (رجل علَوِيٌّ هاشمي) الكوفةَ يسأل عن أخبار الناس ويتجَسَّسُهَا ويتأهب لأمره. (سيأتي ذكر قومة أبيه إبراهيم إن شاء الله) ويدعو من يثق به إلى ما يريد. حتى اجتمع له بشر كثير. وبينما هو يوما يمشي في بعض طرق الكوفة إذ نظر إلى امرأة عَجوز تَتْبَع أحمالَ الرُّطَبِ فتلتقط ما يسقط منها فتجمعه في كساءٍ عليها رَثٍّ. فسألها عما تصنع. فقالت: إني امرأة لا رجلَ لي يقوم بمَؤونَتي. ولي بنات صغيرات. فأنا أتبع هذا من الطريق وأَتَقَوَّتُ به أنا وبناتي. فبكى بكاء شديدا وقال: أنتِ والله وأشباهك تخرجونني غدا (يعني في القومة) حتى يُسْفَكَ دمي!»[3].

نسجل هنا أن «الترف» مذموم في القرآن. والمترفون هم المستكبرون. فباعتبار جمعهم للمال واحتكارهم للأرزاق هم مترفون. وباعتبار استعلائهم على الناس واستئثارهم بالجاه والسلطان هم مستكبرون.

---

(2) «المقدمة»، ص305-306.

(3) «من تجارب السائرين»، ص7.

وقد قرأنا في نص ابن خلدون الحديث عن الطبقات وعن خاصة الناس في ذلك المجتمع الملَكِيِّ. هذه مفاهيم يُفيدنا أن نميز مدلولاتها الإسلامية لنستعملها الاستعمال الذي يخدم بَلاغَنَا.

ذكر ابن خلدون، كما ذكر مؤرخونَ من قبلُ، أن في الناس طبقاتٍ. لم يعتبروا في إطلاق هذه التسمية إلا المكانة الاجتماعية الاقتصادية السياسية. أما في القرآن فالمترفون المستكبرون قوم استغلوا السلطان ليستوْلُوا على الاقتصاد، أو العكس، أو تحالفَ أصحابُ المال مع أصحاب السيف. هذه طبقية ككل الطبقيات في الأمم وفي التحليل البشريِّ. لكن للترفِ والاستكبار في القرآن مدلولا آخر لا تتعرض له التحليلات البشرية، هو كون المترفين المستكبرين يصُدون عن سبيل الله، ويحاربون دينَ الله، ويقاتلون الأنبياء. لأن سبيل الله ودينَه وأنبياءه تعني تحرير الإنسان من عبودية البشر. والمستضعفون في اللفظ القرآني ليسوا طبقة محرومة اقتصاديا، مقهورة سياسيا، محتقرة اجتماعيا فقط، بل هم طبقة ممنوعون أيضا من التكتل ومقاومة الظلم تحت لواء الإيمان بأن لا إله إلا الله.

الفصل الرابع

الصحابة يقاومون الفتنة

- أمير المؤمنين عثمان
- الإمام علي

أمير المؤمنين عثمان

وصف الطبريُّ «أهل الأحداث»، أي الذين أحدثوا في الإسلام مُنكرا، وهم الثائرون على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه. قال حاكيا كلام ابن الكَوَّاء: «أما أهل الأحداث من أهل المدينة فإنهم أحرص الأمة على الشر، وأعجزُهم عنه. وأما أهلُ الأحداث من أهل الكوفة فإنهم أنظَرُ الناس في صغير (يتورعون في الأمور الدينية الصغيرة)، وأرْكبهم لكبير (يجترئون على البغي وسفك الدماء). أما أهلُ الأحداث من أهل البصرة فإنهم يَرِدون جميعا، ويصدُرُون شَتَّى (يتفقون على عمل ثم يختلفون عند لزوم الوفاء). وأما أهلُ الأحداث من أهل مصر فهم أوفى الناس بِشَرٍّ، وأسرعُهم نَدامة».

وكتب معاوية إلى عثمان رضي الله عنه يقول: «إنه قدِمَ عليَّ أقوام ليست لهم عقول ولا أديان. أثقَلَهُم الإسلامُ (ثَقُلَ عليهم) وأضجرهم العدل. لا يريدون الله بشيء. ولا يتكلمون بحجة. إنما هَمُّهم الفتنةُ وأموالُ أهل الذمة. واللهُ مبتليهم ومختبرهم، ثم فاضحُهم ومخزيهم. وليسوا بالذين يُنكون أحدا (يغلبون وينتصرون) إلا مع غيرهم»[1].

مع أمثال هؤلاء تعامل الإمام الشهيد عثمان رضي الله عنه. اجتمعوا عليه في المدينة وشكوا إليه ظلم غِلْمة قريش الذين دسّهم في الأمصار مروانُ بن الحكم. وأعطاهم ميثاقا مكتوبا «أنَّ المنفيَّ يعودُ، والمحرومَ يُعطَى، ويُوَفَّرُ الفيءُ، ويُعدَلُ في القَسْمِ، ويُستعمل ذوو

(1) نقل النصين عن الطبري محب الدين الخطيب في حاشية «العواصم من القواصم»، ص121.

الأمانة والقوة»[1] . فرجعوا راضين. فتعرض لهم في الطريق غلام يلحق بهم ثم يفترق معهم ثم يلحق. مناورةٌ هدفها أن يستريبوا منه. فلما شَكُّوا في حركته وسألوه، زعم أنه رسول أمير المؤمنين إلى عامل مصر. فوجدوا معه كتابا مختوما بخاتَم عثمان يأمر عامِل مصر أن يصلبهم ويقطعَ أيْديَهم وأرجلهم. دسيسةٌ حاشية لا تريد الإصلاح الذي كُتِبَ في الميثاق.

فلما رجعوا للمدينة وحاصروا الإمامَ الشهيد جاءه رجل منهم فقال: «نذَرْتُ دمك !» قال: «خذ جُبَّتي !». فشرط فيها شَرْطَةً بالسيف أراق منه دمه. وبَرَّ بقسمه فارتحل.

ودخل على عثمان في الدار رجال من المهاجرين والأنصار يريدون نُصْرَتَهُ. فقال: «أعْزِمُ على كلِّ من رأى أن عليه سمعا وطاعة إلا كف يدَه وسلاحه. وكان ممن جاء ينصره عبدُ الله بنُ عمر وسِبْطُ الرسول الإمام الحسنُ بن علي رضي الله عنهما. وجاءه الأنصار يقترحون نَصرَهُ بالسلاح فقالوا: «إن شئت كنَّا أنصارا لله مرتين !» قال: «لا حاجة لي بذلك ! كُفُّوا !».

أنصارُ دين الله الأولون كانوا يرون الدفاعَ عن خليفتهم واجبا. لكنه رضي الله عنه أمرهم بالانصراف مخافةَ أن تشتعل الفتنة. قال له أبو هريرة: «اليومَ طاب الضربُ معك !» قال: «عزمتُ عليك لتخرُجَنَّ !». وجاءه الحسن والحسين عليهما السلام وابن عمر وابن الزبير. فعزم عليهم في وضع سلاحهم وخروجهم ولزوم بيوتهم.

هكذا كف الإمام الشهيدُ يده وأيدي المؤمنين. لكنَّ الغوغاء ممن لا عقل لهم ولا دين وجدوا فرصة الرسالة المزورة لينفذوا مؤامرة

(1) حاشية «العواصم من القواصم»، ص125.

كانت مبيتة. وبعد الإمام الشهيد سُلَّ السيف في الإسلام بين المسلمين فما زاد الفتن إلا اضطراما.

الإمام علي

بعد استشهاد عثمانَ رضي الله عنه بايع الناس عليا رضي الله عنه. وكف أهلُ الشام عن مبايعته حين رفض شرطهم أن يمكنهم من قَتَلَةِ عثمان. كانوا يرون أنهم أحق بالمطالبة بدم الإمام للعصبية الأموية. قال لهم الإمام علي عليه السلام: «ادخلوا في البيعة واطلبوا الحق تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحِق بَيْعةً وقَتَلَة عثمان معك نراهم صباحا ومساء. فكان عليٌّ في ذلك أسَدَّ رأيا وأصوبَ قولا. لأن عليا لو تعاطى القَوَدَ منهم لتعصبت لهم قبائلُ وصارت حرباً ثالثة. فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقد البيعة العامة ويقع الطلب من الأولياء (أولياء الدم) في مجلس الحكم فيجري القضاء بالحق. ولا خلاف بين الأمـة أنه يجوز تأخير القصاص إذا أدى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيت الكلمة»[2] .

صار «قميص عثمان» راية اتخـذوها سِتارا وأداةَ تحريض. ويصف الإمام عليٌّ الفتنة لطلحةَ والزبير لمَّا جاءاه يعرضان عليه البيعة إن استقاد من قَتَلَةِ عثمان، فيقول: «يا إخوتاه ! إني لستُ أجهلُ ما تعلمون، ولكن كيف أصْنَع بقوم يملكونا ولا نملكهم. ها هم قد ثارت معهم عُبْدانُكم، وثابَتْ إليهم أعرابُكم، وهُم خِلالَكم يسومونكم ما شاءوا. فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ قالوا جميعا: لا ! قال سيدنا عليٌّ: فلا والله لا أرى إلا رأياً تَرَوْنَهُ ! إنَّ الناس من هذا الأمر إنْ حُرِّكَ على أمور: فرقةٌ ترى ما ترون، وفرقةٌ ترى ما لا ترون، وفرقة

(2) ابن العربي في «أحكام القرآن»، ج4، ص 1706.

لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس، وتقعَ القلوب مواقعها، وتُؤْخذَ الحقوق»[1] .

وجاءت بعد كارثة قتل الإمام عثمانَ كارثتان عظيمتان هما حربا الجمل وصفين. مات فيهما وجرح عشرات الآلاف. وكان قلب الإمام علي يبكي على تلك المآسي التي لا مخرج منها. هو هو أبو الحسن صاحبُ الرأي الموفَّق الذي كان عمر يقول فيه: «لولا عليٌّ لهَلَكَ عمر».

جاءت الدواهي فتصرَّف فيها تَصَرُّفَ الإمام المسؤول عن كل المسلمين ولو حاربوه. أوصى جيشه قبل الجَمَل قال: «إذا هزمتموهم فلا تقتلوا مُدبِرا، ولا تُجْهِزوا على جريح، ولا تَكْشِفوا عَوْرَةً». وصلى بعد النصر على المسلمين من الجانبين، ودفنهم وترحَّم عليهم. ولم يأخذ من أموال المهزومين شيئا بل نادى عليها في مسجد البصرة، وردها إلى أصحابها.

وذكر المؤرخون أنه عليه السلام لما دخل البصرة أغلظت النساءُ بِسَبِّهِ من كلِّ دار، فنادى في جيشه: «لا تَهتِكُنَّ سِترا، ولا تدخُلُنَّ دارا، ولا تَهِيجُنَّ امرأة بأذىً، وإن شَتَمْنَ أعْراضكم، وسفَّهْن أمراءكم وصلحاءكم. ولقد كنا نُؤْمَرُ بالكفِّ عنهن وهُنَّ مشركاتٌ» .

كان تمرد أهل الشام وهيجانُهم سبب كوارث الحرب بين المسلمين. بعث عليٌّ عليه السلام رسولا منه بعد أن تمت له البيعة بالمدينة إلى المتمردين يدعوهم لطاعته. فردوا إليه رسوله. فسأله الإمام ما وراءك ؟ فقال: «ورائي أني تركت قوما لا يرضَوْن إلا القَوَدَ. وتركت ستين ألْفَ شيخٍ يبكون تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم

(1) نقله المودودي عن المؤرخين في كتاب «الخلافة والملك»، ص79.

قد ألْبَسُوهُ منبرَ دمشق». فسأله سيدنا علي: «ممن ؟» (يعني ممن يريدون القصاص) قال: «من خيط نفسك !» [2].

المعنى الصريح لهذا أن المتمردين إنما جعلوا قميص عثمان ستارا يحاربون من خلفه خليفة المسلمين. وكان الإمام عليٌّ عليه السلام يَخْشَى على الأمة أن يتحول زمامُ أمرها إلى ملوك مفسدين. قال في إحدى خطبه: «والله لو وَلُوكُمْ لعمِلوا فيكم بأعمال كِسرى وهرقل !»[3]. وطعن الخارجي المارق إمام الأمة فطويت صفحة الخلافة. قال الصحابي الجليل عبد الله بن عمر في آخر عمره بعد أن رأى فساد الـمُلك: «ما أجدُني آسَى على شيء مِنْ أمر الدنيا إلا أني لم أقاتل الفئة الباغية».

(2) «الخلافة والملك»، ص83.

(3) نفس المصدر، ص91.

الفصل الخامس

القائمون من آل البيت عليهم السلام

- الإمام الحسن السبط
- الإمام الحسين السبط
- الإمام علي زين العابدين
- الإمام محمد بن علي الباقر
- الإمام جعفر الصادق
- الإمام زيد بن علي
- الإمام محمد النفس الزكية

الإمام الحسن السبط

كان السبطان الكريمان الحسن والحسين ريحانتيْ رسول الله صلى الله عليه وسلم. روى الطبراني عن جابر قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدُعينا إلى طعام. فإذا الحسين رضي الله عنه يلعب في الطريق مع صبيان. فأسرع النبي صلى الله عليه وسلم أمام القوم، ثم بَسط يده. فجعل حسين يفر ههنا وههنا، فيضاحكه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذه، فجعل إحدى يديه في ذقنه والأخرى بين رأسه وأذنيه. ثم اعتنقه وقبله. ثم قال: «**حسين مني وأنا منه. أحب الله من أحبه. الحسن والحسين سبطان من الأسباط**».

أخرج البخاري في كتاب «فضائل الصحابة» عن أبي بكرة قال: «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر والحسنُ إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول: **ابني هذا سيد. ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**».

وروى البخاري في كتاب «الفتن» عن الحسن البصري قال: «لما سار الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى معاوية بالكتائب (وذلك بعد استشهاد الإمام عليٍّ عليه السلام)، قال عمرو بن العاص لمعاوية: أرى كتيبة لا تُوَلِّي حتى تُدْبِرَ أُخْراها (أي حتى تقتل أقرانها ومقابليها من الجيش الآخر). قال معاوية: مَنْ لِذراري المسلمين! فقال: أنا! فقال عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سَمُرَة: نلقاه فنقول له: الصلحُ! قال الحسن: ولقد سمعت أبَا بكرة قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب جاء الحسن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: **ابني هذا سيد. ولعل الله أنْ يصلح به بين فئتين من المسلمين**».

طلب معاوية إذن الصُّلْحَ فأجاب الإمام وشرط أن يُقام كتاب الله وسنةُ رسوله. وكانت خطبتُه يوم الصلح برهانا على سيادته التي شهد بها جده صلى الله عليه وسلم. أخرج سعيد بن منصور والبيهقي في الدلائل بسندهما إلى الشعبي قال: «لما صالح الحسن ابنُ علي معاويةَ، قال له معاويةُ: قمْ فتكلم! فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنَّ أكْيَسَ الكَيْسِ التُّقَى، وإنَّ أعْجَزَ العجز الفُجُورَ. ألا وإنَّ هذا الأمْرَ الذي اختلفتُ فيه أنا ومعاويةُ حق لامرئ (المعنى يستقيم هكذا: ما امرؤ) كان أحقَّ به مني، أو حقٌّ لي تركتُه لإرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم. وإنْ أدْري لعلَّه فِتنةٌ لكم ومتاع إلى حين. ثم استغفر ونزل» [1].

تنازل عليه السلام من موقف قوة. فقد كانت كتائبُه كما وصفَها عمرو بن العاص واثقةً من أمْرها، مصممةً على نصر المشروعيَّة. وكانت نيةُ الإمام المحبوب ساميةً حين ترك حقَّه لإصلاح المسلمين. لكنهم عاجلوه بعد ذلك، فسموه فمات شهيدا.

الإمام الحسين السبط

كان عليه السلام ريحانةَ جده، وساعِدَ أبيه. شاركه في حروبه إلى جانب أخيه الحسن. فلما ولِيَ الحسنُ الإمامةَ بعد أبيه دخل في طاعته، وآزره، وحضر الشرط المشروط على معاوية عند الصلح. وبعد أنْ سَمُّوا الإمام الحسن بدأ اضطهاد آل البيت. فقُتل أنصارُهم أمثالُ حُجْرِ بنِ عَدِيٍّ الصحابي. وقُطِعت أرزاقُ العَلَوِيِّينَ. وطُورِدُوا حين التفُّوا حول الإمام الحسين بعد مقتل أخيه. فلما تولى يزيد بن معاوية

(1) «فتح الباري»، ج13، ص63.

الأمر عن بيعة كان فيها الإكراه، وانفتحت لِغِلْمة قريش أبوابٌ كان يُغلقها سِياسةُ مشايخهم من قبل. كان يزيد شابا لعوبا طائشا متهـورا. فلم يكن بُدّ من أن ينهض السبطُ الزكيُّ الطاهر لمقاومة الفاسق العِربيدِ.

أبى الإمام السبط أن يبايع يزيدا، فهاجر من المدينة إلى مكة. وإلى هناك كاتَبَهُ شيعة الكوفة، وواعدوه بالنُّصرة إن هو جاء إليهم. وكتب إلى الأتباع وعامة الناس هذا البيان الذي يحدد فيه موقفه وبرنامجه: «أما بعد فإني لم أخرج أشَراً ولا بَطَراً ولا مُفسدا ولا ظالما. وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وسلم. أريد أن آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسيرَ بسيرة جدي وأبي عليٍّ بن أبي طالب. فمن قبِلني بقَبول الحق فالله أولى بالحق. ومن رد علي هذا أصْبِرْ حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق. وهو خير الحاكمين».

ونهض الإمام إلى العراق بعد أن بعث ابن عمه مسلم بن عقيل ليمهد له الأمر. لكن العشائر التي كانت متحمسة له خذلته لمّا رأت جيوش يزيد المجَيَّشة وبأْسَها. ووقعت كارثةُ كربلاءَ، وهي الخَرْم العظيم في تاريخنا، بأبي وأمي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم !

استشهاد الإمام الحسين جرح في جنب الأمة. فأما الشيعة فجعلوا دمه لعنة على الملك العاض الظالم السفاك. لعنة بقيت تلتهب في الصدور. فمثال الحسين عليه السلام اليوم رمز لإخوتنا الشيعة، بل واقع متجدد عميق في وِجدانهم وأعيادِهم وخطبهم.

وما نراه اليوم(2) من استبسالهم في حرب الزمرة البعثية بالعراق امتداد لغضب القرون المكبوت ضد الظلم ينفجر أمامنا طاقة لا

(2) كُتب هذا والحرب بين الثورة الإسلامية والعراق مشتعلة.

تقاوَم. وعند علمائنا معشر أهل السنة والجماعة لعنة على الظلم مثلُها تنتظر أن تخرج من طي النسيان إلى نشر الجهاد.

قال الإمام التفتازاني في شرح العقيدة النَّسَفِيَّة: «اتفقوا على جواز اللعن على من قتل الحسين، أو أمر به، أو أجازه، أو رضيَ به». قال: «والحق أن رضى يزيد بقتل الحسين، واستبشاره بذلك، وإهانتَه أهْلَ بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، مما تواتر معناه، وإن كان تفصيله آحادا». قال: «فنحن لا نتوقف في شأنه، بل في كفره وإيمانه لعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه».

وقال الذهَبيُّ عن يزيد: «كان ناصبيا فظا غليظا، يتناول المسكر، ويفعل المنكر. افتتح دولته بقتل الحسين». وقال رجل في حضرة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز: «أمير المؤمنين يزيد». فضربه عمرُ عشرين سوطا. واستُفْتي في شأنه إلْكيا الهراسي، وهو شيخ المهدي بن تومرت، فذكر فصلا واسعا من مخازيه حتى نفدت الورقة، ثم قال: «لو مُدِدْتُ ببياض لـمَدَدْتُ العِنَانَ في مخازي هذا الرجل»[1].

تترجم قومة الإمام الحسين عن ضمير الأمة الذي رفض مُلْكَ يزيد. وليس كونُ الإمام الحسين من تلك الأرومَةِ النبوية الطيبة هو وحدَه الذي هزَّ مشاعر علمائنا فلعنوا يزيدا. لكنَّ أفعال يزيد، وسوء تدبيره، وبطشه بالمسلمين، سوَّدَت في أعينهم خيالَ الملك العاض. نبذَ علماء المدينة من المهاجرين والأنصار وأبنائهم بيعته، فسلط عليهم مُسلِمَ بن عقبة، فاستباحها، وقتل منهم أكثر من ثلاثمائة رجل، وحملتْ نساء المدينة ألْفَ جنين من فُجور عسكر يزيد. وثالثة جرائمه بعد قتل الإمام واستباحة المدينة غزْوُهُ الكعبة بالمنجنيق لما قام عليه عبد الله بن الزبير.

(1) هذه النقول عن العماد الحنبلي في كتاب «شذرات الذهب»، ج1، ص68.

الإمام علي زين العابدين

حضر شابا يافعا معركة كربلاء مع أبيه الإمام الحسين السبط. وكان أعلم أهل زمانه، وأبرهم، وأتقاهم، وأكثرهم حَدَبا على الأمة. يقول فيه سعيد بن المسيب: «هو سيد العابدين». ويقول عنه ابن حجر: «زين العابدين هو الذي خلَف أباه عِلما وزُهداً وعبادة». كان يلَقّب بالسّجاد. قال عنه الإمام جعفر الصادق: «كان قيام علي بن الحسين عليهما السلام في صلاته قيامَ العبد الذليل بين يدي الملك الجليل. كانت أعضاؤُه ترتعد من خشية الله عز وجل. وكان يصلي صلاة مودِّعٍ يرى أنه لا يصلي بعدها أبدا».

نجَّاه الله من مجزرة كربلاء. فبقي يَعْسوباً اجتمعت عليه الشيعَة. فحاول لـمَّ شتاتها، واستنهاض هِممها. وتعلم من درس كربلاء أن الذين خذلوا أباه عشائرُ منحلة لا تستطيع أن تكون القوةَ اللازمَة لقومةٍ أخرى، فاتخذ أسلوباً في العمل يرتكز على التعليم والتربية. تخرج على يديه جم غفير من العلماء. رأى هذا الإمام الجليل مجزرة كربلاء، وبعدها مجزرة الحرة، ثم غزو الكعبة، ثم قومة التوابين من أهل الكوفة ممن كانوا خذلوا الحسين فاستأصلتهم جيوش بني أمية، ثم ثورةَ المختار الثقفي التي آلت إلى ما تستحقه من فشل، فقد كان أفّاكا كذابا.

رأى ذلك فعلم أن الناس في تفرق أهوائهم، وخفةِ أحلامهم، يخذلُون أمثالَ الحسين السبط، ويقاتلون مع أمثال المختار الثقفي، فلا يُرجى منهم نصر الحق على الباطل ما داموا عاجزين أنْ يميزوا بين الحق والباطل. فانكب على تربية الرجال، وحافظ على ذكرى أبيه الإمام، انتظارا لزمان أفضل.

في إحدى خطبه وبخ أهل الكوفة قال: «أيها الناس !من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا علي بن الحسين. أنا ابن من انتُهكت حرمتُه، وسُلِبَتْ نِعْمته، وانتُهِبَ مالُه، وسُبي عِيالُه. أنا ابن المذبوح بشَطِّ الفرات، مِن غير ذَحْلٍ ولا تِراتٍ (ثأر وانتقام). أنا ابن من قُتِل صَبْراً، وكفى بذلك فخرا. أيها الناس ! ناشَدتكم الله هل تعلمون أنكم كتبتم إلى أبي وخدعتموه، وأعطيتموه من أنفسكم العهود والميثاق والبيعة وقاتلتموه ! فتباً لكم لِمَا قدَّمْتُم لأنفسكم، وسَوْأَةً لرأيكم ! بأي عين تنظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول لكم: قتلتم عِتْرتي، وانتهكتم حُرمتي، فلستم من أُمتي !».

الإمام محمد بن علي الباقر

هو ابن الإمام زين العابدين. حضر صبيا من ثلاث سنوات مأساة كربلاء. ونشأ في كنَفِ أبيه ربيبَ التقوى والعلم، ربيبَ بيت النبوءة. فنبغ في العلم نبوغا بزّ أهلَ زمانه. فَلَقَّبُوهُ باقرا، لأنه يَبْقِرُ العلـمَ أي يغوص عليه ويشُقه ويستنبطه. قال عنه عبد الله بن عطاء المكي: «ما رأيت العلماء عند أحد من العلماء أصغرَ علما منهم عند محمد بن علي الباقر».

وقال عنه الحافظ ابن كثير: «أبو جعفر الباقر، تابعي جليل كبير القدر، أحدُ أعلام هذه الأمةِ عِلْما وعملا، وسيادة وشرفا. وسُمي الباقرَ لبَقْره العلوم واستنباطه الأحكام. كان ذاكرا خاشعا صابرا. وكان من سُلالة النبوة، رفيعَ النسب، عَلِيَّ الحسب. وكان عارفا بالخطرات، كثير البكاء والعبرات، معرضا عن الجدال والخصومات».

دخل الإمام الباقر على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة فوعظه قائلا: «يا عمر، إنما الدنيا سوقٌ من الأسواق، منها خرج قوم بما ينفعهم، ومنها خرجوا بما يضرهم (...). فاتق الله، واجعل في قلبك اثنتين: تَنظُرُ الذي تحب أن يكون معك إذا قَدِمْتَ على ربك فقدِّمْهُ بين يديك، وتَنظرُ الذي تكره أن يكون معك إذا قدِمت على ربك، فابتغ فيه البَدَلَ. ولا تذهبنَّ إلى سِلْعة قد بارت على من كان قبلك ترجو أن تجوز عنك. واتق الله عز وجل يا عمر ! وافتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورُد المظالمَ. ثم قال: ثلاثٌ من كنَّ فيه استكمل الإيمان بالله.

فجثا عمر على ركبتيه ثم قال: إيه يا أهلَ النبوة ! فقال الإمام: نَعَم يا عمر ! من إذا رضي لم يُدْخِلْه رضاه في الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه من الحق، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له».

الإمام جعفر الصادق

تخرج في مدرسة أبيه الإمام الباقر. فكان قِمةً في علوم الشريعة، مجتهدا أسَّسَ مذهبا فقهيا لا يزال مرجعَ الشيعة. وكان قمةً في الأخلاق والكرم والشهامة. لم تستفزّه تحركات ثُوَّارٍ مثل أبي سَلَمَة الخلال الذي عرض على الإمام البيعة فأبى. ولا شارك في قومتي محمد النفس الزكية وزيد بن علي لِمَا كانَ يعلم من حاجة الأمة إلى تربية ترفع مستوى إدراكها لمسؤولية البيعة والجهاد.

انصرف عن المقاومة المسلحة، وأقبل يربي العلماء والدعاة، ويعلمهم مقاطعة الظَّلَمَة.

يقول عليه السلام: «من عذَرَ ظالما بظلمه سلط الله عليه من يظلمه. فإن دعا لم يستجب له، ولم يأْجُرْه الله على ظُلامَتِه. والعاملُ بالظلم والمعين له والراضي به شركاءُ ثلاثتهم».

ولما سقطت الدولة الأموية وقام العباسيون شددوا الخناق على أبناء عمومتهم العلويين مخافة أن ينافسوهم. وبقي الإمام الصادق بعيدا عن الظهور، مجافيا لأهل الجَـوْر. كتب إليه أبو جعفر المنصور العباسي: «لِمَ لا تغشانا كما يَغشانا الناسُ ؟» فكتب إليه الصادقُ: «ليس لنا ما نخافك من أجله، ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له. ولا أنت في نعمة فنهنئك. ولا تراها نقمة فنُعَزِّيَكَ». فكتب إليه: «تصحبُنا لتنصحَنا». فأجاب: «من أراد الدنيا لا ينصحُك، ومن أرادَ الآخرة لا يصحبك».

الإمام زيد بن علي

أبوه الإمام زين العابدين. فهو عم الإمام الصادق. في أيامه وصلت دولة الجباية والقهر ذروةً من العتو، وسَفُلَتْ في الأخلاق آخرَ دَرَكَةٍ. فغضب زيد عليه السلام، وقام ضد هشام بن عبد الملك سنة 121، إذ لم ير غير السيف لغةً للخطاب، ولا سواه أسلوبا للتعامل مع الظالمين. اجتمع عليه خمسةَ عشر ألفَ مقاتل من الكوفة، سوى أهلِ البصرة وأمصار خراسان. وناصره الإمام أبو حنيفة وقد كان تتلمذ له.

كتب الإمام زيد إلى تلميذه أبي حنيفة يطلب إليه أن يفد عليه ليقاتل إلى جنبه. فأجاب أبو حنيفة: «لو علمت أن الناس لا يخذلونه، ويقومون معه قيام صدق، لكنت أتبعُه، وأجاهُد معه من خالفه،

لأنه إمام حق. ولكني أخاف أن يخذلوه كما خذلوا أباه (يعني جده الحسين عليه السلام). لكني أعينه بمالي فيتقوَّى به على من خالفه»[1].

قال المسعودي: «وقد كان زيد بن علي شاور أخاه أبا جعفر بن علي بن الحسين فأشار عليه بأن لا يركن إلى أهل الكوفة إذ كانوا أهلَ غدر ومكر. وقال له: بها قُتِل جدك علي، وبها طُعن عمك الحسن، وبها قتل أبوك الحسين، وفيها وفي أعمالها شُتِمْنا نحن أهلَ البيت». وصدق الإمام أبو جعفر (وهو محمد الباقر)، فقد خذلت العشائر الإمام زيدا، فقتل ودفنَه أصحابه سرا. ثم نَبَش عنه هشام بن عبد الملك فصلب جثته عريانا.

الإمام محمد النفس الزكية

هو من ذرية الحسن بن علي رضي الله عنهم. بايعه الزيدية والعباسيون قبل انتصار دعوتهم. فلما استولى بنو العباس على السلطان نكثوا دعوته. فاختفى هو وأخوه إبراهيم. ثم انحاز إلى الحجاز، وجمع حوله مائة ألف سيف، ثم زحف على أطراف البلاد. ففزع المنصور العباسيُّ وترك بغداد وذهب إلى الكوفة. فكان يقول: «والله لا أدري ما أنا فاعل !».

وجاءته أخبار سقوط البصرة وفارس والأهواز وواسط ومدائن وغيرها. فلبث المنصور شهرين لا يغيِّرُ لباسه، ولا يأوي إلى فراشه. ويجهز عُدَّتَه للفرار تحسبا لانتصار القائم من آل البيت. وقد كان النفس الزكية آية من آيات الله في سمو النفس، وجمال الصورة، وحسن الأخلاق، وغزارة العلم، ومتانة الدين.

(1) نقله المودودي في كتاب «الخلافة والملك»، ص180.

كان أبو حنيفة يحُثُّ الناس على الخروج مع إبراهيم أخي النفس الزكية. وأفتى بأن الخروج معه أفضل من الحج النّفل خمسين أو سبعين مرة. ونهى أبو حنيفة تلميذه أبا قحطبة -وكان قائدا من قواد جيش بني العباس- عن محاربة النفس الزكية. فكان مذهب أبي حنيفة في القومة أنها واجبة إذا كان القائم عدلا رِضىً وتوفرت له أسباب النصر.

قال الناس للإمام مالك لما قام الإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية: «إن بيعة المنصور في رقابنا، فكيف نخلعها ونبايع غيره». فأفتى ببطلان بيعة العباسيين. وأعلن أنَّ بيعة المكره لا تجوز. فجلده والي المدينة جعفر بن سليمان وهُدَّتْ يده حتى انخلعت كتفه.

«خرج مع إبراهيم كثير من العلماء، منهم هشيم، وأبو خالد الأحمر، وعيسى بن يونس، وعبَّاد بن العوام، ويزيد بن هرون، وأبو حنيفة. وكان يجاهر في أمره ويحث الناس على الخروج معه، كما كان مالكٌ يحث الناس على الخروج مع أخيه محمد. وقال أبو إسحاق الفَزاري لأبي حنيفة: ما اتَّقيتَ الله حيث حَثَثْتَ أخي على الخروج مع إبراهيم فقُتِل ؟ فقال: إنه كما لو قتل يوم بدر ! وقال شُعبة: والله لَهِيَ عندي بدرٌ الصغرى»[1].

قال الشهرستاني: وكان أبو حنيفة رحمه الله على بيعته (يعني النفس الزكية)، ومن جملة شيعته، حتى رُفع الأمرُ إلى المنصور، فحبسه حبسَ الأبَد حتى مات في الحبس. وقيل إنه إنما بايع محمد ابن عبد الله الإمام (النفس الزكية) في أيام المنصور. ولما قتل محمد بالمدينة

(1) «شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي، ج1، ص215.

بقي الإمام أبو حنيفة على تلك البيعة يعتقد موالاة أهل البيت. فرُفِع حالُه للمنصور فتم عليه ما تم»[2].

قتل الإمام الزكيُّ رحمه الله، واستُؤْصِلت مقاومةُ أخيه إبراهيمَ من بعده. لكن أئمَّتنا الفقهاء بقوا على وفائهم للقائمين بالحق. ففي سنة 189 حُمِلَ الإمامُ الشافعيُّ من الحجاز إلى هرون الرشيد مع قوم من العلوية بتهمة الطعن على الخليفة. فما نجا الشافعي من الموت بعد أنْ ضُرِبَت أعناقُ أصحابه إلا بتدخل قاضي القصر، وكان صديقاً للشافعيِّ. ولما خرج يحيى ابن عبد الله بن الحسن المثنى، وهو قائم آخر من آل البيت، سنة 193 «بث دعاتَه في الأرض وبايعه كثيرون من أهل الحرمين واليمن ومصر والعراقين. وبايعه من العلماء محمد بن إدريس (الإمام) الشافعي، وعبد ربه بن علقمة، وسليمان بن جرير، وبشر بن المعتمر، والحسن بن صالح، وغيرهم»[3] .

(2) «الملل والنحل»، ج1، ص158 .

(3) «شذرات الذهب»، ج1، ص338 .

الفصل السادس

علماء في بساط الملوك

- الحسن البصري
- الفضيل بن عياض
- الإمام أحمد بن حنبل

لا نـزال نبحـث في ماضينا عـن نبضـات القومة والمقاومـة لندعم بالأسـوة الحسـنة تحفُّزَنـا لانبعـاث الأمـة المقاتلـة عـلى الحـق، أمـة المسـتقبل. وإنـما نتأسـى برجـال صَمَـدوا ضـد التيـار الجـارف، تيارِ الفتنـة، اسـتعداداً لمـا يطلبه منا بناء الإسـلام مـن مغالبة قُـوى الشر، ومقاومـة انبِسـاطنا في الدنيـا وركوننا للدّعَـة. كان العلـماء العاملون مُنْبَثِّـين عـلى طـول تاريخنا في حـواضر الإسـلام وبواديه، في مسـاجد الأمـة ومدارسـها، في ثغـور الجهـاد وأسـواق العامـة. ولم يجتنبـوا ميدانـا هو أحـرج وأحـوج للشـجاعة، وهو بِسـاط الملـوك، يقولون عندهـم كلمـة الحـق. لا يسـعُنا المـكان لذكرهـم جميعـا، ولا حفِظَت الذاكـرة التاريخيـة كل أسـمائهم. فنكتفي بذكر بعـض أعيانهم رحمهم الله وسـار بنـا عـلى دربهم.

الحسن البصري

التابعـي الجليـل. تربـى في حجـر أُم سَـلَمة أمِّ المؤمنـين، فكانـت تُلهيـه وهـو رضيـع بثديهـا. فلمسـته نفحـة نبويـة. وربـاه الصحابة الكـرام حتـى غـدا بحـراً دافقـا مـن العلـم، ومثـالا للتقـوى والتواضـع، وأسـدا في الحـق لا يخـاف في الله لومـة لائـم. كانـت بـرزت في بعـض العلماء عـلى عهده لَوْثَـةٌ هي اليـومَ فينا مُسـتَفْحِلَةٌ، وهـي التشـاغُل بتوافـه المسـائل عـن مصير الأمة. فحارب الحسـن علـماءَ الخمـول وعلـماءَ الخـلاف والتفاهـات قبـل حربـه الظلمـة. سـأله وكيـع بـن أبي الأسـود: «يـا أبـا سـعيد ! مـا تقـول في دَمِ البراغيـث يصيـبُ الثـوب، أيُصَـلَّى فيـه ؟» فيُجيبـه: «يـا عجبـا ممن

يَلِـغُ في دماء المسـلمين كأنه كلب، ثم يسـأل عـن دم البراغيث!»[1].
حمَّـلَ الإمـام الحَسـنُ وِزرَ الدمـاءِ الزكية التي سـفحها غِلْمـةُ قريش المفسـدون العلـماءَ السـاكتين عـن مقتل الحسـين، ثم يسـأل بعضهم عـن دم البرغـوث !

استدعاه عمر بن هبيرة، عامل يزيد بن عبد الملك على العراق، واستدعى معه الشعبيّ. فقال عمر: «إنَّ يزيد بن عبد الملك عبد أخَذ الله ميثاقَه، وانتجبه لخلافته. وقد أخذ بِنواصينا، وأعطيناه عهودَنا ومواثيقنا وصفْقَةَ أيدينا. فوجب علينا السمع والطاعة. وإنه بعثني إلى عراقكم غير سائل إيَّاه. إلا أنه لا يزال يبعث إلينا في القوم نقتُلهم، وفي الضِّياعِ نقْبِضُها، أو في الدُّور نهدمُها. فَنُوَلِّيه من ذلك ما ولاه الله ! فما تريان ؟».

وَالٍ يتنازعه عامل الوفاء لبيعةٍ هي رِبقة مفروضة لا تصح شرعا وعامل الغضب على ما يستعمله فيه يزيد من سفك الدماء وهتك الحُرَم. فيريد أن يتنصل من المأزق بدفع المسؤولية عنه وتحميلها مَن ولاّه.

أجابه الإمام الحسنُ قال: «يا عمر ! إني أنهاك عن الله أن تتعرض له. فإن الله مانعُك من يزيد، ولا يمنعك يزيدٌ من الله (...) إن هذا السلطان إنما جُعل ناصراً لدين الله، فلا تركَبوا دينَ الله وعباد الله بسلطان الله تذلونهم به. فإنه لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق جل وعز».

قاطع غِلْمَةَ قريش، ولذعهم بلسانه، وأفشى في العامة كراهيتهم. فلما ولِيَ الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز صحبه. فمن مواعظه

(1) كتاب «الحيوان» للجاحظ، ج1، ص225.

له قال: «يا أمير المؤمنين، كن للمِثْلِ من المسلمين أخا، وللكبير ابنا، وللصغير أباً. وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جُرْمِهِ، ولا تضربَنَّ لِغضبك سوطا واحدا فتدخلَ النار»[2].

ومِثْلُ الحَسَنِ من ينصح الصالحين أمثالَ ابن عبد العزيز. قال عنه الغزالي: «ولقد كانَ الحسن البصريُّ رحمه الله أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقربَهم هَديا من الصحابة رضي الله عنهم. اتفقت الكلمة في حقه على ذلك»[3].

الفضيل بن عياض

ذكر ابن الجوزي أنَّ هارون الرشيد طاف في حججهِ على العلماء والصالحين يلتمس منهم أنْ يعظوه. حتى انتهى هو والفضل بن الربيع وزيرُه فقرعا الباب على الفضيل رحمه الله. فإذا هو قائم يصلي بآية يرددها. ثم أجاب الوزيرَ سائلا: «من هذا ؟» قال ابن الربيع: «فقلت: أجبْ أمير المؤمنين ! فقال: ما لي ولأمير المؤمنين ؟ فقلت: سبحان الله ! أما عليك طاعة ؟ (...). فنزل ففتح الباب، ثم ارتقى الغرفة فأطفأ المصباح. ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت.

«فدخلنا. فجعلنا نجول عليه بأيدينا. فسبقت كفُّ هارون قبلي إليه. فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غدا من عذاب الله عز وجل ! (...) فقال: «إن عمر بن عبد العزيز لما ولِي الخلافةَ دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القُرَظِيَّ، ورجاءَ بن حَيْوَة، فقال لهم: إني قد ابتُليتُ بهذا البلاء فأشيروا علي. فعد الخلافة بلاء وعددتها

(2) «المصباح المضيء»، لابن الجوزي، ج2، ص66.
(3) «الإحياء»، ج1، ص68.

أنتَ وأصحابك نعمة. فقال له سالم بن عبد الله: إن أردتَ النجاة غدا من عذاب الله فليكن كبيرُ المسلمين عندك أبا، وأوسطُهم عندك أخا، وأصغرُهم عندك ولدا.

«وقال له رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غدا من عذاب الله عز وجل فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إذا شئت !

«وإني أقول لك: إني أخاف عليك أشد الخوف يوما تزل فيه الأقدام ! فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا ؟ فبكى هارون بكاء شديدا حتى غُشِيَ عليه. فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين ؟ فقال: يا ابن الربيع ! تقتله أنت وأصحابُك وأرفُـقُ به أنا !»[1].

من علمائنا وصالحينا من انقبضوا عن السلطان انقباض الفضيل إذْ أطفأ مصباحه وترك الزائرين عند الباب يُشعِرُهما بهوانهما عليه. ومن الملوك من خلط عملا صالحا وآخر سيئا، فيبكي إذا وُعظ، ثم ينصرف إلى الدنيا وبسطتها. يُفسدُ النظامُ الرجالَ، فأنى يُفلتُ من رِبقته إلاَّ أمثال عمر بن عبد العزيز ! وتبقى الأمة بعد مرور زيد وعمر من الناس في الربقة، ما منها من خلاص.

الإمام أحمد بن حنبل

لم يدرك إمامُ أهل الحديث رحمه الله قومة النفس الزكية وقومة يحيى، فلم يشارك في الخروج على الطغاة مثلما شارك أبو حنيفة ومالك والشافعي. لكن قولته المشهورة في الخروج ومشروعيته تحمل روح القومة لو وجد إليها سبيلا.

(1) «صفة الصفوة»، ج2، ص137.

نذكر بهذه القولة البليغة التي رواها عنه القاضي أبو يعلى الحنبلي: «ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة وسُمِّيَ أميرَ المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إماما، بَرّاً كان أو فاجرا»[2].

ولا شك أن شدة كراهته لمنكر المأمون والمعتصم دفعه أن يأمل الخير في قائم «عليهم» بالسيف «بَرا كان أو فاجرا». وكأنه رحمه الله لشدة فجور المتسلطين يرى في مجرد الاستبدال خيرا. هذا تفسير آخر لهذه الكلمة، يخالف تفسير بعض الفقهاء الذين يستندون إلى مثل هذا النص ليُفتوا بجواز «ولاية الاستيلاء».

كانت له رحمه الله مكانة عظيمة في نفوس الأمة، أَشْرَبَ الله قلوبَ الناس حُبَّه ومهابَته بعد أن أغدق عليه نِعمة العلم ومِنة التقوى. قال أحدُ معاصريه: «دخلت على إسحق بن إبراهيم (نائب بغداد) وفلان وفلان من السلاطين. فما رأيت أهيب من أحمد بن حنبل. صِرتُ إليه أكلمه في شيء، فوقعَتْ عَلَيَّ الرِّعْدَةُ حين رأيته من هيبته»[3].

لا يحب الملوك والسلاطين من يزاحمهم على الرئاسة، ولا من تُجِلُّهم الأمة وتسمع نداءهم، سيما إن كانوا مثلَ ابن حنبل لا تلين لهم قناة في الحق. لهذا امتحنوه وعذبوه.

أصْدر المأمون العباسيُّ أمره، بعد أن اعتنق بدعة القول بخلق القرآن، أن يُجْمَع العلماء والقضاة ويُمتحنوا في القول بمذهبه. فعزَل من خالفه، وأسقط شهادتَهم. ثم شدد الامتحان فتخلى الكل

(2) «نصوص الفكر السياسي الإسلامي»، ص241.
(3) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، ص134.

عن المقاومة إلا أربعة منهم الإمام أحمد. فسيق أحمد بن حنبل إلى بغداد مقيدا، وسُجن في سجن العامة ثلاثين شهرا. واستدعاه المعتصم، بعد وفاة المأمون، إلى بَلاطه، وجمع له العلماء المدَجَّنين لِيُناظروه.

قال ابن دُؤَادَ في ذلك المجلس: «يا أمير المؤمنين ! لئن أجابك لَهُوَ أحبُّ إليَّ من مائة ألف دينار، فيَعُدَّ من ذلك ما شاء الله أنْ يعد». فقال المعتصم: «والله لئن أجابني لأطلِقَنَّ عنه (يعني القيد) بيدي، ولأرْكَبَنَّ إليه بِجُندي، ولأطأن عَقِبَه (يعني يسير خلفه باحترام وتعظيم) !». وطال الإغراء وطالت المساومة. وما ظنُّك برجل لا يثمن عقيدته بمآت آلاف الدنانير، بمتاع قليل كما يثمن وزراء الجور.

قال الإمام أحمد: «وجلس المعتصم على كرسي ثم قال: العقَّابين والسياط ! فجيء بالعقابين (وهم الجلادون) فمُدَّت يدايَ. فقال بعض مَن حضر خلفي: خُذْ نَأْيَ الخشبتين بيديك، وشد عليهما ! فلم أفْهَمْ ما قال، فتخَلَّعَتْ يدايَ».

إذن فقد كان حتى في البلاط قومٌ يتعاطفون مع الإمام، فيُسِرّون إليه النصيحة ليخِفّ عنه العذاب.

قال الإمام: «ولما جيء بالسياط نظر إليها المعتصم وقال: ائتوني بغيرها !» خليفةٌ جلاد ! «ثم قال للجلادين تقدموا ! فجعل يتقدم إليَّ الرجلُ منهم فيضربني سوطين، فيقول له: شُدَّ ! قطع الله يدك ! فلما ضُرِبْتُ تسعة عشر سوطا قام إليَّ (أيْ المعتصم) وقال: يا أحمد ! علام تَقتُلُ نفسك ! إني والله عليك لشفيق ! قال: فجعل عُجَيْفٌ (جلاد) يَنْخَسُنِي بقائِمةِ سيفهَ.

«وقال: أتريد أن تغلب هؤلاء كلَّهم ! (يعني علماءَ القصر الكُثْرَ المتألِّبين على الإمام). وجعل بعضهم يقول: ويلكَ ! الخليفةُ على

رأسك قائم ! وقال بعضهم: يا أمير المؤمنين ! دمُه في عنقي ! اقتُله ! وجعلوا يقولون: يا أميرَ المؤمنين ! أنت صائم ! وأنت في الشمس قائم ! فقال لي: ويحك يا أحمد ! ما تقول ؟ فأقول: أعطوني شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقولُ به. فرجع وجلس وقال للجلاد: تقدم وارجع، قطع الله يدك ! ثم قام الثانية، فجعل يقول: ويحك يا أحمد ! أجبني ! فجعلوا يُقْبِلُون عليَّ ويقولون: يا أحمد ! إمامُك على رأسك قائم»[1].

وأُغمي على الإمام، فطرحوه على وجهه وداسوه بنعالهم. وكان صائما فما أفطر. قال بعض معاصريه: «أُدْخِلَ الكير فخرج ذهبا أحمر». ما وهَنَ في سبيل الله. رحمه الله ورضي عنه.

هكذا نرى كيف كان بِساط الملك مَرْتعا لعلماء القصور عَبَدَةِ الطاغوت وأعوانِه، و كيف كان بساط الملوك نُطْعاً جُلدت عليه الأبشار، وسُفكت فيه دماء الأحرار. وإنها لمأساة في تاريخنا أن يَجِدَ الظلَمَةُ والطغاة من المنتسبين إلى العلم خداما خانِعين. والمأساة في عصرنا أشدُّ ما كانت عليه. رحم الله سيد قطب والإمام البنا والإمام باقر الصدر وسائر العلماء العاملين.

حشرنا الله في زمرتهم.

(1) نقله الندوي في كتاب «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، ص141.

الفصل السابع

العلماء المربون



- العارفون بالله
- شيخ الإسلام يُدافع عن الطريق
- الإمام الغزاليّ
- الشيخ عبد القادر الجيلي
- رجال صدقوا
- الإمام حسن البنا

العارفون بالله

انحاز طائفة من العلماء والأئمة المربين إلى صفوف الأمة يرومون إصلاح الناس على هامش الحياة العامة لَمَّا يئسوا من وجود أنصار على الحق قادرين على إنجاح القومة. هكذا فعل أئمة آل البيت بعد خِذلان الناس للأئمة الحسين، وزيد، والنفس الزكية، ويحيى.

من هؤلاء المربين من عُرفوا باسم طارئ على القرون الأولى. سُمُّوا صوفية، وعرفوا بسُمُوِّ المطْلَب، وعلُوِّ الكَعب في العبادة، والزهد، والورع. كانوا أقربَ العلماء صلة بالعامة، وأشدَّهم تأثيرا في أخلاق الأمة، وأكثَرهم حِفاظا على روح السنة.

كان الفقيه يفتي في النوازل، وكان المحدث منكبا على العلم يخدم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكلا الوظيفتين حيوي لحياة الأمة.

لكنَّ المشايخ العارفين بالله اختصوا بتنوير القلوب، وتقريب العباد إلى خالقهم، بحملهم على الاستقامة، وتسليكهم بمجاهدة النفس، ودوام الذكر، ومراقبة الحق عز وجل. ولم يُقَصِّروا في الجملة في نشر العلم وبث الفضيلة في الأمة، إذ تتعدى تربيتهم الخاصة من تلامذتهم إلى العامة. وكانوا إلى جانب هذا يُؤْوُونَ البائسين، ويَفْصِلُون الخصومات، ويشفعون عند الحكام للمظلومين.

وعلى مر القرون تطور ما يسمى بالتصوف فدخل تحت المرقعة التي كانت شعارا للزهد مرتزقةٌ باسم الطريق. وتبدأ الزاوية أو الخانقاه مدرسة علم وتربية في حياة الرجال المؤسسين، فلا تلبث أحيانا أن يدخلها بعدهم الانحراف.

ووقعت فتنة الخلاف المزمن بين أهل الحديث الذين حافظوا على الشريعة من بدع الضالين وبين المنتسبين إلى الخرقة، أعني الصوفية. المحامون عن الشريعة من خارج القوم يحكمون بظاهر ما ينطق به ويفعله لابسو المرقعات، وحاملو المسابح، ورواد حلقات السماع، وفيه الهُجْرُ والبدعة. فيعممون الحكم ويسَوُّونَ في اللعنة الأصيلَ الزكيَّ، والدخيلَ الغبيَّ.

لكنَّ العلماء الراسخين يعلمون أن الطريق، والسلوك، والوصول، ومعرفة الله، ومقام الإحسان، والفتح، والمشاهدة، كلَّها حق. هؤلاء تتلمذوا للمشايخ المربين، ما منعهم ذلك من محاربة البِدع في صفوف الأدعياء.

لا يكادُ يُحْصَى عددُ العلماء الذين درسوا الحديث والأصول والفقه حتى تبحروا، ثم سمت همتهم لمعرفة الله عز وجل فبحثوا عن الطريق، فما وجدوا إلا هؤلاء المشايخ أولياءَ الله مَن يدلهم على المنهاج النبوي في التزكية والتوحيد. نخص بالذكر منهم بعض أهل الحديث ممن بدأوا بمحاربة كل من سمته الأوضاع صوفيا، ثم ميزوا آخر الأمر بين ثياب التقوى وأثواب الزور.

منهم الحافظ ابن كثير -وهو محدث آخر غير صاحب التفسير المشهور بمذهبه التيمي. في آخر عمره أخذ ابن كثير عن نجم الدين الإصفهاني الشاذلي كما ذكر ذلك الصفدي في كتاب «نكث الهميان». ومنهم من المتأخرين الإمام الشوكاني حاملُ لواء السنة المجتهد البَحرُ. في آخر حياته تتلمذ هو نفسه لشيخ نقشبندي كما ذكر ذلك في كتابه «البدر الطالع».

إن حديثنا عن مقام الإحسان وعن الصوفية وما هنالك من خلاف لا يتسع له هذا الكتاب. لكنَّ لُبَّ الإيمان كما عاشه رسول الله صلى

الله عليه وسلم هو هذه «الحقيقة الصوفية» كما كان يسميها مربي هذه الأجيال الشيخ حسن البنا رحمه الله.

من الناس من لا تتسع حويصلته ليفهم أنَّ السنة النبوية هي أقوال الرّسول صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وأحواله، ينقصنا من السنة بقدر ما ينقصنا من العلم وهو مجال الأقوال النبوية، ومن العبادة والمعاملة والجهاد وهي أفعاله، ومن إثبات أعراف المجتمع واجتهاد المسلمين الذي لا يصدم الشريعة وهو مجال التقريرات. وأهم من كل هذا، إذ هو ثمرة العلم والعمل، الأحوال الشريفة. ومجال الأحوال الأخلاق الظاهرة، والمشاعر القلبية الباطنة، وثمرة كل ذلك هو الكمال الروحي.

يتصور بعض الناس أن دولة الإسلام يمكن أن تقوم وتكون إسلامية حقا بمجرد انتشار الفكر الإسلامي، و«الالتزام» بالصلاة، والأمر والنهي، ثم الجهاد. ما نتحدث عن الرحمة والسكينة ومعاني القلب وعن الكمال الروحي كما عاشها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلا لنؤكد أن تلك الأحوالَ الشريفةَ هي اللب وهي العماد.

فبدون تربية تغرس شجرة الإيمان، وتسقيها حتى يزدهر عليها ريحان الإحسان، ثم يثمر، لا تكون الجماعة الإسلامية مؤهلة لجهاد ولا لبناء.

لا حاجة بالمسلمين إلى القتال حول المصطلحات، ولا لتبديد الجهود في نبش الماضي للدفاع عن زيد وعمرو من أمةٍ خلت، لها ما كسبت، وعليها ما اكتسبت، ولا يسألنا الله عن عملها. لكن إن ضاع من المسلمين مفتاحُ التربية الإحسانية، وجف من القلوب الشوقُ إلى الله عز وجل، فيا حسرة على العباد!

ألا وإن الله عزت قدرته، وجلت منته، قيض لهذه الأمة رجالاً كُمَّلا، يا من يتنسم معنى للكمال ! كانوا ولا يزالون وسيبقون إن شاء الله ورثة الأنبياء وخلفاءَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمته. جامعين بين الأقوال والأفعال والأحوال.

ولا تحسبن أحوالَ القلب النورانيةَ من قبيل المجازِ والمبالغة والخيال. كشف الله عنا حجاب الغفلة حتى نعرف الحق. آمين. والحمد لله رب العالمين.

شيخ الإسلام يدافع عن الطريق

اشتهر بين أنصار السنة من أهل الحديث شيخ الإسلام ابن تيمية. عاش رحمه الله أواخر القرن السابع وأوائل الثامن (661 – 728) عصرا مضطربا. قال الشوكاني: «وقد وقع له من أهل عصره قلاقلُ وزلازلُ ، وامتُحن مرة بعد أخرى وحُبس حَبْسا بعد حبس». كان مثالا للزهد وعلو الهمة. قال تلميذه البزار: «ما رأيناه يذكر شيئا من ملاذِّ الدنيا ونعيمها. ولا كان يخوض في شيء من حديثها، ولا يسأل عن شيء من معيشتها. بل جُلُّ هِمته وحديثِه في طلب الآخرة وما يُقرِّب إلى الله تعالى».

حارب رحمه الله الطوائف الضالة ومن جملتهم فسادا وإفسادا القائلون بالحلول والوحدة المطلقة وما إلى ذلك من الكفريات نعوذ بالله. لا تهمنا تلك المعارك ولا نقلد في ديننا رجلا كائنا من كان دون سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. فإن أوردنا من كلام شيخ الإسلام ما يثبت احترامه وتعظيمه وتسليمه للعارفين بالله، فإنما نفعل لعل بعض المقلدة من كسالى الفكر، ومتحجري العقل،

ممن يلف في جراب بؤسه المعنوي أقوالَ العلماء، ليحارب بها الأمة، يرجع ليبحث عن الحق كما بحث الرجال.

كانت أيام شيخ الإسلام جهادا متواصلا، قال كلمة الحق عند سلاطين الجور، وإن لم يُفْت بجواز الخروج عليهم. وحارب التتار، وحث الناس على جهادهم، وأصْلَتَ سيفه على المارقين والضالين، فأصابت ضرباتُه بعض أهل الله. هي معركة يغفر الله فيها إن شاء الله.

سأله الحافظ عُمَرُ البزار تلميذُه عن سبب اقتصاره في التأليف على مُحاربة الفِرَقِ الضالة فأجابه قائلا: «الفروعُ أمرها قريبٌ. فإذا قلد المسلم فيها أحد العلماء المجتهدين جاز له العمل بقوله ما لم يتيقن خطأه. وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة، والباطنية، والملاحدة، والقائلين بوحدة الوجود، والدهرية، والقدرية، والنصيرية، والجهمية، والحلولية، والمعطلة، والمجسمة، والمشبهة، والراوندية، والكلابية، والسلمية، وغيرهم من أهل البدع، قد تجاذبوا فيها أزمة الضلال. وبان لي أن كثيرا منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية»[1].

جيش عرمرم من الطوائف. ورجل من علماء الأمة يدافع عن «الشريعة المقدسة المحمدية» فهل طريق التربية الصوفية مخالفة للشريعة ؟

كتب شيخ الإسلام لأحد مشايخ الطريق، وهو الشيخ نصر المنبجي، يقول: «إلى الشيخ العارف القدوة السالك الناسك أبي الفتح نصر، فتح الله على ظاهره وباطنه ما فتح به على قلوب أوليائه (...)،

(1) هذه النقول عن «الفتاوي»، ج1، ص ج و د.

وكشف به الحقيقة الدينية المميزة بين خلقه وطاعته، وإرادته ومحبته (...). أما بعد فإن الله تعالى قد أنعم على الشيخ وأنعم به نعمة باطنة وظاهرة في الدين والدنيا. وجعل له عند خاصة المسلمين الذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا (قلت: يعني الصوفية الذين كان المنبجي أحد كبارهم) منزلة علية، ومودة إلهية، لما منحه الله تعالى به من حسن المعرفة والقصد. فإنَّ العلم والإرادة أصل لطريق الهدى والعبادة»[1].

إلى أن يقول: «والله تعالى يعلم، وكفى به عليما، لولا أني أرى دفع ضرر هؤلاء (يعني الأدعياء في الطريق الصوفي) عن أهل طريق الله تعالى السالكين إليه من أعظم الواجبات، وهو شبيه بدفع التتار عن المؤمنين، لم يكن للمؤمنين بالله ورسوله حاجة إلى أن تُكْشَفَ أسرارُ الطريق وتهتك أستَارُها»[2].

يقصد رحمه الله بأسرار الطريق وأستارها هذه الأذواق القلبية والأحوال الشريفة والمقامات العلية التي يكون الحديث عنها فتنة لمن ليس له استعداد أن ينفض يده من كل هم غير هَمِّ الله، ومن كل خطرة غير ذكر الله، ومن كل حركة غير عبادة الله والجهاد في سبيل الله. لا إله إلا الله محمد رسول الله.

عن هذه الأذواق والإلهامات القلبية يقول شيخ الإسلام: «لا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقا (يعني للشريعة)، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاما ومحادثة وخطابا من الحق (...). وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه

(1) «الفتاوي،» ج2، ص452.
(2) نفس المصدر، ج2، ص464.

وسلم أنه قال: «قد كان في الأمم قبلكم مُحَدَّثونَ. فإن يكن في أمتي فعمرُ منهم»[3].

فالرجل لا ينكر عجائب القلب، ولا الإلهام، ولا الكرامات، ولا اختصاص الله بعض عباده بالولاية الخاصة، وهي غير ولاية المؤمنين المتقين العامة.

والرجل يعظم المشايخ ويستشهد بهم، مشايخ الطريق أهل الولاية. يتحدث عن بعض من خاصمهم في الطريق فيقول: «فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة، ليسوا من صوفية أهل العلم فضلا عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري وأمثالهم رضوان الله عليهم أجمعين»[4].

هؤلاء الذين ذكرهم هم صفوة الأمة، سمَّوهم صوفية. تبَنَّى الدفاعَ عنهم، وسماهم مشايخ أهل الكتاب والسنة. ولا يمَلُّ يكيلُ لهم الثناء، ويُظْهِرُ تبجيله لهم، خاصة الإمام عبد القادر الجيلي رحمه الله.

قوم من المقلِدة رفعوا عِلْمَ هذا الإمام رايةً ليُكَفروا المسلمين. ليتهم على الأقل فهموه، وليتهم يفهمون !

إن معركة أهل السطوح مع أهل الله قائمةٌ أشَدَّ ما كانت. راجع كتاب الشيخ سعيد حوى «تربيتنا الروحية» وراجع كتاب «مدارج السالكين» لابن القيم رحمه الله وهو تلميذ ابن تيمية النجيب. وأبُثُّكَ هنا كلمة: إن فاتك البحث عن الطريق إلى الله فابك على نفسك،

(3) كتاب «الفرقان»، ص53-52.

(4) نفس المصدر، ص80.

والسلام ! فاز والله من سلك طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء الناهجة !

الإمام الغزاليّ

وُلِدَ ابن تيمية بعد قرن ونصف من موت الغزالي. وقرأ كتبه وخاصمه خصاما فرعيا، لم يُبَدِّعْه ولم يضلله. يا أيها المقلد المسكين ! تبحث في الأوراق عن تاريخ الرجال. ابحث عن رجل من أهل زمانك يأخذ بيدك إلى الله كما بحث أمثال الغزالي !

قرأ الغزاليُّ علم زمانه حتى أصبح مدرسا في المدرسة النظامية أكبر معاهد عصره. ثم أقبل يبحث في علوم القوم حتى اطمأن إليها. فيقول: «فعلمت يقينا أنهم (الصوفية) أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال. وأنَّ ما يمكن تحصيلُه بطريق العلم فقد حَصَّلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك»[1].

ثم تفكر في حاله، وهي حال مدرس ناجح تحيط به أُبَّهَة العلم، وتعظيمُ العامة، والحَظْوة عند الحاكم، فأنكر ما هو عليه، واشتاق إلى الله عز وجل وإلى من يدله عليه.

رُبَّ قائل يقول:ما معنى أن يبحث عالم مثلُه عن رجل يدله على الله ؟ وما معنى الدَّلالة على الله ؟

يظن الناس أن الدلالة على الله قول وموعظة وتعليم نصوص. تلك دلالة على شرع الله نعم ! أما الدلالة على الله، فلو كانت تَسَعُها الكلمات والكتب لكان الغزالي وجدَها. فابحث كما بحث إن كان

(1) «المنقذ من الضلال»، ص123 .

يؤرِّقُك اليأس من نفسك، والافتقارُ إلى الله، والشوق لمعرفته كما عرفه أولياؤُه. فإن كنت مغتبطا بحالك فكلامنا مع غيرك.

تخلَّى الغزالي عن الجاه والمال، ولبس الخشِنَ، وخرج للجبال يبحث، حتى وجد شيخا اسمه الفارمدي أخذ بيده، ورباه وهو عالم المسلمين في عصره. دامت التربية اثنتي عشرةَ سنة رجع بعدها الغزالي إلى الناس بلسان جديد ينبئ عن قلب استنار بأنوار المعرفة.

يقول مخبرا عن نتائج خلوته لذكر الله وقرْع باب الكرم الإلهي: «ودمت على ذلك مقدارَ عشر سنين. وانكشفت لي في أثناء هذه الخلَوات أمورٌ لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤُها. والقدْرُ الذي أذكره يُنتَفَعُ به: إني علمت يقينا أنَّ الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة. وأنَّ سيرتَهم أحسنُ السِّيَر، وطريقَهم أصوبُ الطرق، وأخلاقَهم أزكى الأخلاق. بل لو جُمع عقلُ العقلاء، وحكمةُ الحكماء، وعلمُ الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليُغَيِّرُوا شيئا من سِيَرِهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلا. فإنَّ جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة. وليس وراءَ نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به»[2].

ثم رجع إلى بغداد، فأصبح نورا يُستضاء به، يُربي الرجالَ، ويقصده فحولُ العلماء، يجلسون بين يديه جلوس الأطفال. هل كان ذلك لتحصيل نقولٍ كدسها طِيلَةَ غيبته ؟ لاَ والله ! بل لنور يودعه الله في قلب من لجأ إليه لجوءا كاملا، وأقبل عليه، وأحبَّه واتبع آثار رسوله صلى الله عليه وسلم.

(2) «المنقذ من الضلال»، ص131.

جاءه القاضي أبو بكر بن عربي، فحلٌ من فحول علماء هذه الأمة، مؤلف «أحكام القرآن»، ذلك الكتاب النفيس الذي بين أيدينا يشهد بعلو كعبه في علوم الحديث والفقه واللغة. مؤلف كتب كثيرة لم تصلنا، منها «أنوار الفجر» في تفسير القرآن في ثمانين مجلدا، مائة وستين ألف صفحة.

نقل المقري في كتاب «نفح الطيب» ما يلي من كلام القاضي أبي بكر يصف لقاءه الإمام الغزالي: «ورد علينا دانشمند (يعني الغزالي، ولعله كلمة تعظيم بالفارسية) فنـزل برباط ابن سعد بإزاء المدرسة النظامية مُعْرِضا عن الدنيا، مُقبلا على الله تعالى. فمشَيْنا إليه، وعرضنا أُمْنِيَتَنَا عليه، وقلت له: أنتَ ضالَّتُنَا التي ننشد، وإمامُنا الذي به نسترشد ! فلقيَنا لقاء المعرفة، وشاهَدْنا منه ما كان فوق الصفة»[1].

خاض الغزاليُّ معاركَ مع الباطنية، وساند المستظهر العباسيَّ لتغليبه مصلحةَ بقاء سلطان الأمة مُوَحَّداً على الفتنة بفراغ السلطان، وصدع بالحق ضد الظلَمة، وخلَّف كتابا جليلا هو «إحياء علوم الدين».

الناظر في هذا الكتاب الموسوعي يجد علما لنا مؤَثّلا في علم النفس البشرية وأمراضها وعلاجها، وفي علم الشريعة وأسرارها، وفي علم السلوك وآدابه. لكن هذا الكتاب لا يغنيك أخي في السلوك على يد رجل سلك الطريق قبلك. بل إن من دخل في المجاهدة اقتداء بمثل هذه الكتب معرض للعطب إن لم يكن ذلك عن إشارة طبيب للقلوب.

نعم ! إن إقامة دولة القرآن في الأرض لا سبيل إليها إن لم تقم في قلب أئمة الدعوة والدولة سوقُ المعرفة بالله، والخوف من الله، والحنين

(1) «العواصم من القواصم»، مقدمة محب الدين الخطيب، ص21.

إلى الله، والطمأنينة بذكر الله، والسكينة إلى الله، والشوق إلى لقاء الله، والعض بالنواجذ على سنة رسول الله.

ولا سبيل إلى هذا إن لم تعالج القلوبُ بالطب القرآني النبوي، ولم تُزَكَّ، ولم تُصْقَلْ، ولم يُطْرَدْ منها خَبَثُ الشرك، ووباء الغفلة، وجَدْبُ القَسوة، ونزَغات الشهوة. لا يستطيع المرء أن يطِبَّ نفسه بنفسه. فيكون البحث عن ورثة أحوالِ النبي صلى الله عليه وسلم في الأهمية سابقا ومساماتاً للبحث عن ورثة أقواله وأفعاله.

وهذا لا يعني أن شيئا من الأحوال القلبية الشريفة يورَث بالزيغ عن سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم. إنما يعني أن عليم اللسان قد يكونُ فاسقا، وأنَّ العابد والفقيه قد يكونان بمعزل تام، وفي جهل مطبق، بالمعاني القلبية، والحياة الإيمانية الإحسانية. والوارثُ الكامل من تجلت فيه أحوال الولاية والدراية. أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

الشيخ عبد القادر الجيلي

من هؤلاء الكُمَّل رجلٌ أجمعت الأمة على صلاحه وولايته. كان قمةً في علوم عصره، قمة في التقوى والزهد، قمة في الجهر بالحق، قمة في التربية والحُنُوِّ على الأمة. كانت الاستقامة على السنة النبوية مذهبَه، وكان الحثُّ عليها دَيْدَنَهُ.

قال رحمه الله: «اتبع الشرع في كل ما ينـزل بك إن كنت في التقوى التي هي القدم الأول (يعني في الطريق إلى الله). واتبع الأمر (أي أمر الشرع) في حالة الولاية ووجود الهوى (مادام يغلبك هوى نفسك) ولا تتجاوزه وهي القدم الثانية. وارض بالفعل (فعل الله)، ووافق، وَافْنَ، في حالة البَدَلِيَّةِ والعينية والصديقية (وهي مقامات

أهل الله) وهي المنتهى. تَنَحَّ عن الطريق القَذِرِ، خلِّ عن سبيله. رُدَّ نفسك وهواكَ».

قال ابن تيمية بعد أن أورد هذا الكلام: «فقد بين الشيخ عبد القادر رضي الله عنه أن لزوم الأمر والنهي لا بد منه في كل مقام. (...) وقد بين أن صاحب الحقيقة (العارف بالله) عليه أن يلزم الأمر دائما؛ الأمر الشرعي الظاهر إن عرفه، أو الأمر الباطن. وبيَّن أن الأمر الباطنَ إنما يكون فيما ليس بواجب في الشرع ولا محرم. وأن مثل هذا يُنْتَظَرُ فيه الأمر الخاصُّ حتى يفعله بحكم الأمر»[1].

إذن هنالك أذواق قلبية هي من قبيل الإلهام والتحديث الذي ورد في الحديث الصحيح. وابن تيمية إذ يشرح كلام الشيخ يتحدث حديث الخبير. ويورد كلام الإمام الجيلي ليرد على الطوائف الزائغة الكافرة القائلة بأن السالك يصل إلى مقام يرتفع فيه عنه تكليف الشرع. نعوذ بالله من الخذلان!

هؤلاء المحدَّثون الكمل أمثال الشيخ عبد القادر هم مستودعُ أسرار الله بين خلقه، هم حَمَلَة القرآن حقا، وأهلُ الاصطفاء صدقا. تأثيرُهم في الأمة لا يقارَنُ بتأثير الواعظ الفصيح الذي يهُزُّكَ هزا ثم تنفصل عنه بقلب ما لاَنَ، ولا بتأثير الفقيه يفتيك في النازلة بالدليل والبرهان ويتركك وشأنك.

قال السيد الجليل أبو الحسن الندوي رحمه الله يصف المربيَ النموذجيَّ الشيخ عبد القادر: «وانتهى الأمر إلى القرن السادس، وقد تباعد الزمان عن النبوة وآثارِها وبركاتها. واتسعت الدنيا، وكثرت أسبابُ الغفلة واللهو، وطال على المسلمين الأمَدُ فقست قلوبُهم. هنالك نهض في بغداد، دار السلام وقلبِ عالَم الإسلام، رجلٌ قوي

(1) «الفتاوي»، ج10، ص523-525.

الشخصية، قويُّ الإيمان، قويُّ العلم، قويُّ الدعوة، قويُّ التأثير. فجدد دعوة الإيمان والإسلام الحقيقي، والعبودية الخالصة، وأخلاقِ المؤمنين المخلصين. وحارب النفاق الذي اجتمع في المجتمع الإسلامي بقوة منقطعة النظير في تاريخ الإصلاح والتجديد. وفتح باب البيعة والتوبة (بيعة التوبة لا بيعة الإمارة) على مصراعيه، يدخل فيه المسلمون من كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي، يجددون العهد والميثاق مع الله (...).

قال رحمه الله: «وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ويشرف عليهم وعلى تقدُّمهم. وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان على يد عبد مخلص وعالم رباني شعورا جديدا. وظل بينهم وبين الشيخ رباطٌ وثيق عميق أقوى من رباط التلاميذ بالأساتذة والشيوخ، ومن رباط الجند بالقائد، ومن رباط الرعية بالراعي (...).

«وقد كان لخلفائه وتلاميذه ولمن سار سيرتهم في الدعوة وتهذيب النفوس، من أعلام الدعوة وأئمة التربية في القرون التي تلته، فضلٌ كبيرٌ في المحافظة على روح الإسلام، وشُعلة الإيمان، وحماسة الدعوة والجهاد، وقوة التمرد على الشهوات والسلطات. ولولاهم لابتلعت المادة التي كانت تسير في ركاب الحكومات والمدنيات هذه الأمة»[2].

رجال صدقوا

في كل عصور الإسلام وَفَى لله رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه. ولم تنقطع سلسلة الإرشاد والتربية ومقاومة السلطان الجائر،

(2) «رجال الفكر والدعوة في الإسلام»، ص281- 283.

وإن تعددت المدارس، واختلفت الأساليب. من الإمام الحسين إلى الإمام الخميني عرفت الشيعة أئمة وعلماء حافظوا على جذوة الإيمان ورفض الظلم حية في ضمير الأمة. ومن الحسن البصري إلى حسن البنا عرف أهل السنة مربين ومقاومين مجاهدين جددوا الإيمان وحاربوا الطغيان.

منهم سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام. كان شَجىً في حلق الحكام، غضب على سلطان دمشق المسَمَّى الصالحَ بن إسماعيل حين استنجد بالإفرنج على الملِكِ نجم الدين أيوب سلطانِ مصر، فأسقط اسمه من الخطبة وخرج مهاجرا. فتبعته الحاشية وقالوا: «ما بينك وبين أن تعود إلى ما كنت عليه من الحظوة إلا أن تعود، فتنخشع للملك، وتُقَبِّلَ يده». فقال: «يا مساكين! أنا لا أرضى أن يقبل السلطان يدي!».

ذهب العز إلى مصر فاحتفى به نجمُ الدين، وكان شديد البأس لا يجسُرُ أحد أن يخاطبَه ابتداء. ففي محفَله ناداه عز الدين: يا أيوب! ونهاه عن منكر. فسألوه بعد ذلك عن جُرأته فقال: «يا بُنَيَّ، استحضرت هيبة الله تعالى فكان السلطان أمامي كالقِط، (...) فلا عظمة ولا سلطان، ولا بقاء ولا دنيا. بل هو (أي الملك) لا شيء في صورة شيء».

وطغى الأمراء المماليك واشتدت وَطْأتَهم على الأمة فأفتى الشيخُ أنه لا يصح لهم بيع ولا شراء، ولا زواج ولا طلاق ولا معاملة، وأنه لا يصح لهم شيء من هذا حتى يُباعوا ويرد ثمنُهم إلى بيت مال المسلمين. فغضب عليه الملك، فخرج مهاجرا وتبعه الناس لم يتخلف عنه رجل ولا امرأة ولا صبي ولا عالم ولا محترف. ففزع الملك وخرج يسترضيه[1].

(1) «وحي القلم» للرافعي، ج3، ص61 وما بعدها.

ومنهم عبد الله بن ياسين. عالِمٌ مرب عاش في المغرب أواسِطَ القرن الخامس. وكان عصرا انتشرت فيه ردة قوم يُسَمَّوْن البُرْغْوَاطِيِّينَ. فانحاز بجماعة من الشباب في جزيرة يربيهم حتى اكتملت له العُدَّةُ. فزحف على الكفر، ولم شَعَثَ الأمة، وحمل السيف والدعوة حتى أسس دولة ترأسها من بعده الملكُ الصالح يوسفُ بن تاشفين. تُسَمَّى هذه الدولةُ دولة المرابطين باسم رباط التربية والجهاد الذي خرج منه تلامذة عبد الله بن ياسين.

وكان يوسف بن تاشفين قائدَ جند الله في معركة الزلاّقة الشهيرة التي انتصر فيها المسلمون على جحافل الإسبان في الأندلس. فمَدّوا بذلك عُمْرَ الإسلام بتلك البلاد أربعة قرون. يوسف بن تاشفين الملك الصالح الذي لم يُغْوه السلطانُ فبقي على بَسَاطَةِ البدوي الصحراوي تُحْلَبُ له ناقةٌ منها طعامُهُ، ويدُه مبسوطةٌ على جزْءٍ مهم من شمال إفريقيا والأندلس. يُرْوَى أن الإمام الغزاليَّ هاجر إليه لما سمع من عدله، فلم تتم الهجرة لموت الملك الصالح.

ومنهم نورُ الدين بن زنكي الملكُ الصالحُ التقيُّ، نعُدُّهُ من البناة. وهو الذي هيأ لصلاح الدين الأيوبي قواعدَ الوحدة وأَسَّسَ القوة التي اعتمد عليها لتجنيد الأمة في جهادها ضد الصليبية. كانا أميرين من حَمَلَةِ السيف، لكن جهادهما وصفاءهما وسَطَ الكَدَرِ، وإنجازهما التاريخيَّ، ترفعهما في ذاكرة الأمة وعند الله إن شاء الله إلى المراتب العليا. ولا نزكي على الله أحدا. رحمهم الله.

ومنهم في القرن الحادي عشر في المغرب الشيخ الحسنُ اليوسيُّ. قاوم الظلم ونشر العلم، وعاش مشردا طول حياته. ورسائله لإسماعيل مَلِكِ المغرب تشهد أنه ممن وَفَوْا لله حقّ النهي عن المنكر والأمر بالمعروف.

ومنهم الشيخ الإمام أحمد بن عرفان الشهيدُ في الهند. ربى الرجال، وجند المؤمنين لقتال الكافرين منذ قرن ونصف.

ومنهم بعدَه المهديُّ السودانيُّ من أهل الطريق أهل المصحف والسيف. حارب الإنجليز في وقت كان فيه العالم الإسلامي منبهرا أمام قوة الاستعمار الهاجم. كان سلاحه أمام بنادق العدو ومدافعه رماح بسيطة وإيمان غلاب.

ومنهم قبله في الجزائر الإمام عبد القادر شيخ الطريق وأمير الجهاد وأستاذ المنبر. قاوم الاحتلال الفرنسي ست عشرة سنة. فكان مفخرة من مفاخر الإسلام.

ومنهم المشايخ السنوسية في ليبيا. أسسوا المدارس ونشروا الإسلام في إفريقيا. ولا يزال اسم الإمام أحمد السنوسي واسم عمر المختار وهو ثمرة تربية الجماعة السنوسية يجلجلان في أسماع التاريخ لجهادهما الاحتلال الإيطالي الوحشي الهمجي.

ومنهم محمد بن عبد الكريم الخطابي بالمغرب. عالم مجاهد، جمعَ القبائل، وواجه جيوش إسبانيا وفرنسا مجتمعين. فنصره الله نصرا مؤزرا. وكان ماوتسي تونغ الزعيم الصيني معجبا به. ولا يزال اليساريون والثوريون من كل جنس ومِلة يتحدثون عن جهاده ويعُدُّونه مخترع حرب العصابات الحديثة.

ومنهم عِز الدين القسامُ أب المقاومة ضد اليهود في فلسطين. عالِمٌ مِنَّا جاهد باسم الإسلام لا باسم القومية.

ومنهم علماء مسلمون شاركوا في حروب التحرير من الاستعمار، لكنهم رأوا جهادهم تمتصه الحزبية والوطنية لما تحالفوا مع غير جنسهم

من هذه الأجيال التي قاومت الاستعمار استنادا إلى الدم والأرض والتاريخ لا إلى الدين.

الإمام حسن البنا

طوينا الحديث طيا، وأوجزنا إيجازاً مُخلا. ومن حق رجالنا تحت راية دولة القرآن أن يحتلوا الصدارة إلى جانب الصحابة والتابعين في ميادين الإعلام، وضرب الأمثال، والتذكير بالأبطال. تحت راية القرآن يجب أن نزيل الاحتلال الثقافي الذي يملأ أفقنا بتمجيد مفكري الجاهلية وقادتها، ونعيد ذكرى علمائنا ومصلحينا وأئمتنا. فهم الامتداد الحي لصاحب الرسالة ومَعِينِ الكمالِ محمد صلى الله عليه وسلم.

نُبرز هنا وجها مُشرقا من وجوه الدعوة في عصرنا بل في كل العصور، هو الشيخ الإمام حسن البنا رحمه الله. عاصره فطاحلُ الدعاة أمثالُ الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي مؤسس حركة رجال الدعوة والتبليغ، والشيخ بديع الزمان سعيد النورسي أب الحركة الإسلامية في تركيا، وكلاهما من أهل التربية والذكر.

للسيد الجليل محمد إلياس الفضل في انتشار الإسلام في الهند وسائر بقاع المعمور على يد رجاله الذين يذكروننا بالصحابة رضي الله عنهم في الصبر على مشاق الدعوة، وفي حمل كلمة الهداية في حواضر المعمور وبواديه. ولئن كان أسلوبُهم يَقْصُرُ عن التعبئة الجهادية وما تقتضيه من إعداد قوة العلم والتنظيم فمرَدُّ ذلك إلى ظهورهم في بلدٍ المسلمون فيه أقلية مضطهدة.

وللشيخ بديع الزمان النورسي فضل إحياء الدعوة تحت قهر الطاغوت أتاتورك وحزبه. نشر العلم وربى الرجال في ظروف عصيبة، مختفيا تارة مرتحلا أخرى لا يَمَلّ ولا يَنِي.

وعاصر البنا مفكراً ثاقب النظر من علمائنا، هو أبو الأعلى المودودي. استفادت جماعة «الإخوان المسلمين» من مؤلفاته القيمة. وترك المودودي رحمه الله تنظيما واسعا في باكستان والهند يرجى أن يجمع الله على يديه كلمة أهل الحق.

وغير هؤلاء دعاة ومربون في أقطار الإسلام المباركة. ويبقى الإمام البنا غُرَّةً في جبين الدعوة بما جمع الله فيه من خصال الخير. فإن نظرت إلى خشوعه وتبتله وروحانيته فهو قَبَسٌ من المشكاة النبوية. وإن نظرت إلى علمه وسَعَةِ أُفُقِهِ فهو إمام سنيٌّ ومعلم عبقريٌّ. وإن نظرت إلى شجاعته في الحق وهيبته في صدور من عاشروه فهو أسد من أُسْدِ الله. ناهيكَ عن فصاحته وحكمته وأدبه وصبره. رحمه الله رحمة واسعة.

كان المصحف والسيف، السلطان والدعوة، مفترقين في فكر المسلمين منذ أن تخاصم السلطان والقرآن وتقاتلا في عهود الملك العاض، مفترقين في الحياة العملية للمسلمين. والبنا رحمه الله من القلائل الذين اجتمع في تصورهم القرآن والسلطان. لم يجد في زمانه من الرجال المكتملي النضج إلا القليلَ ممن أدركوا مَدْرَكَهُ، فعمد إلى تربية نشء جديد لا يَفْصِل بين التربية الإيمانية القلبية وبين الدراية الفكرية، ولا بين المسجد وساحة القتال، ولا بين العبادة والسياسة، ولا بين التبتل وترويض الأجسام وحمل السلاح.

وجد الإمام الخميني جِهازا قائما لحمل دعوته، ونصْر قضيته، ممثلا في عشرات الألوف من علماء المسلمين خريجي الحوزات الدينية

المستقلة إداريا، الغنية ماليا بأموال الخُمُس. ولم يكن من بين هؤلاء العلماء إلا قلة يميلون للسلطان ويخدُمونه.

أما في جانبنا، فزيادةً على التدهور الفظيع الذي أصاب الأزهر وسائرَ معاهد العلم، فإن ذهنيَّةَ مُسَالَمَةِ الحاكم كانت القاعدةَ. فما وسعَ الإمامَ البنا إلا أن يبدأ من جديد صياغة جند يحمل الرسالة وينصر الدعوة. ولئن اغتالته الأيدي الأثيمة قبل أن يُكَمِّل جهاده ويرى ثِمارَ ما غرس، فإن آثارَه العلمية وخاصة رجالَه الذين ربَّى وتعهد ووجَّه بَثّوا روحا جديدة في الأمة، تبارك الله ما أوسع وأسمى. نضّر الله وجهه كما نضر وجه المسلمين. ونضر وجوه دعاة الخير من السابقين واللاحقين. آمين.

قال أبو الحسن الندوي أحد رجال الدعوة البارزين من أهل القرآن والإحسان عن الحسن البنا: «وقد تجلت عبقـرية الداعي مع كثرة جوانب هذه العبقرية ومجالاتها في ناحيتين خاصتين لا يشاركه فيهما إلا القليل النادر من الدعاة والمربين والزعماء والمصلحين (قال في الهامش: وكان من هذا القليل النادر الشيخ محمد إلياس الدهلوي منشئ دعوة التبليغ وحركتـها في الهند ونجلُه وخليفته الشيخُ محمد يوسف المتـوفى قريبا رضي الله عنهما وأرضاهما فقد كانا مثـالين فذين في هـاتين الناحيتـين كلتيهما).

أُولاهما شَغَفُهُ بدعوته، وإيمانه واقتناعه بها، وتفانيه فيها، وانقطاعُه إليها بجميع مواهبه وطاقاته ووسائله. وذلك هو الشرط الأساسي، والسِّمَةُ الرئيسية للدعاة والقادة الذين يُجري الله على أيديهم الخيرَ الكثير.

والناحيةُ الثانية تأثيره العميق في نفوس أصحابه وتلاميذه، ونجاحُه المدهش في التربية والإنتاج. فقد كان منشئ جيل، ومربِّيَ

شعب، وصاحب مدرسة علمية فكرية خُلُقِيَّةٍ. وقد أثَّرَ في ميول من اتصل به من المتعلمين والعاملين، وفي أذواقهم، وفي مناهج تفكيرهم، وأساليب بيانهم، ولغتهم، وخطابتهم، تأثيرا بقي على مر السنين والأحداث. ولا يزال شِعاراً وسِمَةً يعرفون بها على اختلاف المكانِ والزمان»[1].

وكتب عنه مفتي القدس محمد أمين الحسيني رحمه الله: «بينما كان الملاحدة ودعاة الإباحية ومروجو الفكرة الشعوبية (القومية العلمانية) يهاجمون الإسلام، وينشرون سمومهم وضلالاتهم في مختلف الأوساط في الأقطار المصرية والعربية، وبِخاصة بين طلبة الجامعات والمعاهد العليا، برز المرحوم (إن شاء الله) الشيخ حسن البنا في وسط الشعب المصري المؤمن كما تبرز الشمس من بين السحب الداكنة، داعيا أمته وبلاده والمسلمين جميعا إلى العمل بالقرآن الكريم، وتطبيق أحكامه السامية، وآدابه الرفيعة، والاستمساك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم في كل شأن»[2].

وكتب سيد قطب رحمه الله: «وعبقرية البنا (تتجلى) في تجميع الأنماط من النفوس ومن العقليات ومن الأعمار ومن البيئات. تجميعُها كلها في بناء واحد (...) وطبعُها كلِّها بطابع واحد يُعرفون به جميعا، ودفعُها كلّها في اتجاه واحد، على تبايُنِ المشاعر، والإدراكات، والأعمار، والأوساط، في رُبْعِ قرن من الزمان»[3].

وكتب الأستاذ محمد الغزالي متحدثا عن الإمام البنا: «لقد عاد القرآن غضا طريا على لسانه، وبدت وراثة النبوة ظاهرة في شمائله.

(1) مقدمة كتاب «مذكرات الدعوة والداعية» للشيخ حسن البنا.
(2) «الشهيد حسن البنا» كلمات تأبينية، ص19.
(3) نفس المصدر، ص157.

ووقف هذا الرجل الفذ صخرةً عاتيَةً انْحسرتْ في سفحها أمواجُ المادية الطاغية. وإلى جانبه طلائع الجيل الجديد الذي أفعم قلبَه حُبّا للإسلام واستمساكاً به (...). لقد عاش على هذه الأرض أربعين عاما، لم يَبِتْ في فراشه الوثير منها إلا لياليَ معدودة. ولم تره أسرتُه فيها إلا لحظاتٍ محدودة، والعمر كله بعد ذلك سياحةٌ لإرساء دعائم الربانية، وتوطيد أركان الإسلام، في عصر غفل فيه المسلمون، واستيقظ فيه الاستعمار»[4].

أين تَرَبَّى هذا الرجلُ الفذ الذي أفعم أسماعَ العالم بنداء الإسلام، وجمع الله حوله القلوب، وغير به الأفكار و«عاد القرآن غضا طريا على لسانه» ؟ تعلم على أبيه العالِم المحدِّث، وتعلَّم في المدارس ككل الناس. لكن التربية القلبية التي تُرَسِّخُ الإيمان، وتسمو بالروح لمعارج الإحسان، تلقاها على يد أهل الطريق، كما تلقاها الغزاليُّ وما لا يُحصى من علمائنا العاملين. وقد أدى رحمه الله أمانة الشهادة لأهل الذكر بأنهم معدنُ الفضل، ووصف دعوتَه بأنها «حقيقة صوفية» وجعل من المنجيات محبة الإخوان وذكر الوظيفة.

كتب رحمه الله في مذكراته: «سألتُ عن مُقدّم الإخوان (الصوفية الحصافيين) فعرفت أنه الرجل الصالح التقي الشيخ بسيوني العبد التاجرُ. فرجوته أن يأْذَنَ لي بأخذ العهْدِ عليه ففعل (...) وجزى الله عنا السيد عبد الوهاب فقد أفادتني صحبتُه أعظَمَ الفائدة»[5]. يقول هذا رجل لا يعرف التزيد في الكلام.

وانتقد رحمه الله ما علِقَ بالتصوف من أدعياء وما ظهر فيهم من بِدَع وخرافات. لكنه نصح الأمة كما نصح الغزاليُّ إذ قال: «وهذا القسم

(4) «الشهيد حسن البنا» كلمات تأبينية، ص60.
(5) المذكرات، الطبعة الثانية، ص13-14.

من علوم التصوف، وأسميه «علوم التربية والسلوك»، لا شك أنه مِنْ لُبِّ الإسلام وصميمه. ولا شك أن الصوفية قد بلغوا به مرتبة من علاج النفوس ودوائها، والطبِّ لها، والرُّقيِّ بها، لم يبلغ إليها غيرُهم من المربين»[1].

واقرأ نقده الصريح، نقد خبير، للفلسفة الدخيلة، وخلط الدين بما ليس منه، وفتح الثغرات بذلك للزندقة والإلحاد وفساد العقيدة. واقرأ نصيحته بوجوب التدقيق في هذا الأمر لاختلاط الصادقين بالموهين والمحترفين والأدعياء طلاب الدنيا بمظاهر الصلاح في «مذكرات الدعوة والداعية».

اللهم صل على سيدنا محمد النبيء الأمي وأزواجه أمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على آل سيدنا إبراهيم إنك حميد مجيد.

(1) المذكرات، الطبعة الثانية، ص15.

الفهرس

الفصل الأول

القومة ومشروعيتها

الفصل الثاني

قطع حبال الفتنة

الفصل الثالث

من القومة المسلحة إلى الاحتجاج الصامت

الفصل الرابع

الصحابة يقاومون الفتنة

الفصل الخامس

القائمون من آل البيت عليهم السلام

الفصل السادس

علماء في بساط الملوك

الفصل السابع

العلماء المربون